رواية

د. محمد باباعمي

اليربوع الأزرق

رقان... نقطة الانعطاف

من صناعة الموت إلى صيانة الحياة

رواية
د. محمد باباعمي
اليربوع الأزرق
رقان نقطة الانعطاف من صناعة الموت إلى صيانة الحياة

عنوان الرواية: اليربوع الأزرق «رفان... نقطة الانعطاف من صناعة الموت إلى صيانة الحياة»
إسم المؤلف: د. محمد باباعمي
تصميم: محمد عمي سعيد
الطبعة الثانية: 1437هـ - 2016م
مقاس الكتاب: 205x140 ملم
عدد الصفحات: 146
رقم الإيداع: 2980-2016
ردمك: ISBN: 978-9947-817-02-5

محفوظة جميع الحقوق

Copyright © 2016 Kitabook

كتابك Kitabook
Kitabook.net
Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger : Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

د. محمد باباعمي

رواية
اليربوع الأزرق

Kitabook

رڤان... نقطة الانعطاف

من صناعة الموت إلى صيانة الحياة

Kitabook

"Blue Jerboa"

Reggane a Turning Point

From Death Making to Life Guarding

An intellectual short story

Dedicated to the school of 13th of February 1960, Reggane, Algeria

La "Gerboise Bleue"

REGGANE POINT D'INFLEXION

DE LA MORT PROGRAMEE A LA VIE SAUVGUARDEE

Essai de perception sensible et intellectuelle

Dédié à l'école du 13 Février 1960, Reggane, Algerie

الفصل الأوَّل

ويُولد الرضيعُ المتَّهم

«ما دامت لدى الإنسان قدرة على أن يتعلم
الكره ، فهو قادر على تعلم الحب»

نيلسون مانديلا: رحلتي الطويلة من أجل الحرية

Kitabook

كتابك
Kitabook

خارج مستشفى المدينة، حفنةٌ من الجمهور، تحمل لافتات كُتب عليها، بخطٍّ أحمر معتصَر من لون الدم:

- **«العالَم كلُّه يدين الوليد».**

- **«أوقِفوا نزيف الأعداء».**

- **«بركاتْ... بركاتْ...».**

- **«هو خائن لوطننا أبًا عن جدٍّ»...**

... ولافتاتٌ أخرى كثيرة، تعبّر عن مَدى السَّخط والحقد الذي يكنُّه الحشد لهذا الذي دخَل المستشفى، وهو في رحم أمِّه، لا يسمع ولا يرى، لا يفكِّر في شيءٍ، ولا يحسُّ شيئًا... لقد كان جنينا مِن خلْق الله، نَفخ فيه من رُوحه نفخةً، جعلته كريما... كريما... كريما.

بعد بُرهة، قُبيل غروب الشمس، وقبل أن تختفي بين شعاب الجبال ذابلةً حزينةً متعبةً؛ انطلقت جلبةٌ عُجلى، وضجيج مُنيم، ثم تناقلت الألسن - خارج البناية - الخبرَ الفجيع؛ وغنَّت البومُ على إثر ذلك غناءها المعهود، واستعدَّت النسور السمراءُ، آكلة الجيف للتصفيق بأجنحتها فوقَ المكان؛ وقال بعض شهود العيان:

- **«رأينا هنالك (التي-هوكيوي) وهو نوعٌ من الجوارح الضخمة، لونُه أسود على أبيض، وله عرف أحمرُ... مِن عادته أكلُ لحوم البشر وهي حيَّة، إنه يعاف الجيف، خلاف النسور».**

******

ولِد الجنين إذن، وصار قُبيل ساعة رضيعًا، وقد كلَّف أمَّه عنتًا ورهقًا شديدا؛ ذلك أنه أهلَّ إلى الدنيا بالعملية الجراحية القيسرية؛ واحتاج الطبيبُ إلى دم حتى يخلُف ما نزف من المسكينة «فاطمة»، وقد كانت فصيلتُها من النوع النادر جدًّا (AB-)، ولقد كابدت الحاملُ الأمرَّين، جراء آلام المخاض ابتداءً، وجراء ما تسمع من أصوات تتعالى بالوبال والنكال، خارج المستشفى تِباعاً؛ ولقد كانت الأصوات والشتائم - واحسرتاه - أشدَّ وقعًا على قلبها الممزَّق، وأكثر إيلامًا...

****

من الباب الخلفيّ للمستشفى دخلت العائلة: الزوجُ، والأب والأم، والأخ الأكبر... دخلوا وهم يحملون زهورا ذبُلت منذ أمدٍ، وبعضَ الحلوى التي صنعوها في البيت بعناية فائقة، ولكنها بدأت تتهشَّم وتذوي بفعل الحرارة، والوثائقَ الرسمية لتُملأ استمارةُ التسجيل؛ لأوَّل وليد تضعه «فاطمة» مكابَدة ومعانَدة.

قال الزوج، وهو لا يكاد يُخفي دمعه فرحًا وقلقًا:

- **«فلنسمِّه، إذن... ولنُعلن الفرح والعرس بعد ذلك؟».**

اقترح الأب اسم «سالم» أو «سلام» وهو يتفاءل بالسِّلم، رغم صعوبة الموقف، وتعقُّد الوضع...

أمَّا الأم، فصمتت، ثم قالت:

- الرأيُ رأيُكم...

نطقت فاطمة على ألمٍ مبرحٍ، وحزن غريم، يصاحبه التنهُّد الثقيل، والاستغفار المتكرِّر:

- والله، إني تمنيت أن يكون ابني «عليًّا»، ولكَم أحببت الصحابيَّ الجليل عليَّ بن أبي طالب، صهرَ رسول الله عليه السلام، وابنَ عمه، وسبطَ أبنائه... عليٌّ، ذلك الرجل الذي يعدم زمانُنا مثله، بل نَصيفه... أو حتى عُشره...

تفكَّه الزوج، ليضفي على الجو بعض المرح، فقال:

- «عليٌّ هو زوج فاطمة، أمَّا عليُّنا فابنٌ لفاطمة... ألا ترون تناقضا؟».

ضحِك الجميع ضحكة سطحية متكلَّفة، ضحكة مشوبة بالتوجُّس مما يغلف الجوَّ خارج المستشفى... وبدت عليهم ملامِح الرضا بالمقترح... فتوكَّلوا على الله، وأطلقوا عليه اسم «عليٍّ»... على بركة الله.

****

كلمة عليٍّ في الجزائر، أو في كامل المغرب العربي، خميرة وأصل لكثير من الأسماء والألقاب؛ فقد يضاف إليها «الباء» أو «الدال» للتعظيم «باعلي» و«دّاعلي»، أو «الواو» هكذا «واعلي» كأنه نداء له واستغاثة بشيمه وخصاله وبطولته، ثم «اللام» قد تسبقه في لقب «لعْلِي» وإن لم يتحقق أحد قد ينطقه «لعلِّي». وأمَّا «السيد» فهو سابق لعليٍّ في مناطق كثيرة

من البلد: «سيدْ اَعلي» فينطق موصولا غير مفصول؛ والناس بخاصَّة في المدن يدللون و«يدلِّعون» عليًّا بـ«عليلو». وقد كان اللقب الثوريُّ لأحد أبطال الثورة التحريرية الجزائرية مزيجا من عربية وفرنسية «علي لابوانت» (Ali Lapointe). والنسبة «علَوِي» هي لقب كذلك، حتى وإن لم يكن صاحبها علويًّا بحقٍّ.

وكلُّ ما له علاقة برسول الله ﷺ يجد نفس العناية: اسمه، واسم زوجاته، وأهل بيته، وصحابته... وما يحبه، وما أمر به، والحجُّ إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبره الشريف...

****

الآن، وقد تمت إجراءات التسجيل في مصلحة المستشفى، جاء وقت المغادرة، ولم يكن بدٌّ للعائلة أن تركب سيارة الإسعاف، لتُخفي فيها «ذاتها، ولونها، وانتماءها، وخصوصياتها»؛ وقد كلَّفتهم الكثيرَ من المال كراءً؛ كونها سيارة إسعاف خاصَّة... فركبت العائلة، وبين يدي الوالد ينام «عليٌّ الخير»، يحمله أبوه جِسما، ويحمله رُوحا... يحمله أمَلا، ويحمله ألما... يحمله ووابلٌ من الأسئلة يهزُّ خياله... ولا يكاد يُبين...

بين كتلِ الجمهور الغاضب، المرصوفِ كقطع لحم نتنٍ، تمرُّ السيارة متسلِّلة لواذا... لم يكونوا على علم بما تحتوي عليه، غير أنَّ مَن بالداخل يُبصر ما بالخارج... ولا تخفى

لافتة كبيرة تلوِّح بها بعضُ الأشباح المستشيطة حنقًا وغيظًا، وهي تقول:

- **«أعدموه... أريحوا العالم مِن عدوٍّ تاريخيٍّ جديد... أريحونا مِن خائن محقَّق أكيد».**

بل راحت بعض الأيدي الملصقة بجهاز ميكانيكيّ مصنَّع برداءة، لعلَّه موجَّه من غرفة للعمليات عبر الأقمار الصناعية، أو أنَّ داخله جثة بشرية عديمة الضمير تحرك أزراره... من يدري؟

راحت هذه الأيدي الغاشمة تلوِّح بلافتة عليها آية قرآنيةٌ، كتبت بخطٍّ رديء، واجتثّت من سياقها، وحمِّلت ما لا تحتمل:

- **«إن تذرهم يُضِلُّوا عبادك، ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا..».**

فاجرا كفارا... فاجرا كفارا...

****

وجهةُ السيارة إلى البيت البعيد، ولقد كانت الطرقاتُ مقابرَ ومزابل ومحارق من الجانبين؛ مِن هنا، ومِن هنالك... جماعاتٌ تتحاور عصبيةً، وعيونٌ تحملق جيئة وإيابا... يُمنة ويُسرة... لا شيء على ما يرام... ثمة أمرٌ جديدٌ... بل لعلَّها القيامةُ الكبرى تقترب رويدًا رويدًا... وتبدأ تطوافها من شوارع هذه البلدة الطيبة...

****

- «**بسم الله ولجنا، وباسم الله خرجنا، وعلى ربنا توكلنا...**».

دخل الموكب البيت على بركة الله... والبيتُ مرتَّب جيَّدا، منذ البارحة صباحًا، ورائحة البخور المدنيِّ تفوح وتحلِّي المقام، فتنعش الأنفس المكسورة المقهورة...

وفي الطابق الأرضي، في صالون الجلوس، نظِّم فراش خاصٌّ بالمرأة التي تضع حملها أوّل أيام نفاسها... فراشٌ مرفوع، عليه نمارق مصفوفة، حوله زرابي مبثوثة.. بلون مخطَّط أزرق وأخضر وأصفر... وإلى جوارها - في «الأعالي» - تودِع «فاطمةُ» رضيعها «عليًّا» وهي تلهج بحمد الله؛ ليكون مقامُه مقامًا «عليًّا»، وينال بين أفراد العائلة، وبين العالمين شأنا وشأوا... تفاؤلا ودعاء...

مَن يدري...؟

Kitabook

الفصل الثاني

في مكابدة الفهم

«اللهم أخرجني من ظلمات الوهم ، وأكرمني بنور الفهم ، اللهم افتح علينا أبواب رحمتك ، وانشر علينا خزائن علومك ، برحمتك يا أرحم الراحمين»...

دعاء مأثور

Kitabook

كتابك
Kitabook

عليٌّ الآن بلـغ الخامسة بالكاد، فاستعجل والدُه إلحاقه بالمدرسة المجاورة، واشترى له اللائقَ والجميلَ من الملبس، وتحمَّلت أمُّ عليٍّ كُلفة التشويق، فكانت كلَّ صباح تقول لابنها المدلَّل:

- **«بقي اليومَ كذا يوما، وتصيرُ رجلا، فتحمل محفظة جميلة، وتهرول نحو المدرسة... يا بني، يا عزيزي...».**

ثم هي لا تنسى - حين تتوقَّف عن الكلام دقائق قد تطول، وتنشغل ببعض أمرها - أن تعيد الكرَّة تلو الكرَّة مـع ابنها، فتشرح له معنى أملها، وحقيقة أملِ زوجها فيه:

- **«بنيَّ، حبيبي... ستكون أنت الأوَّل في الصفِّ، وستتفوَّق على جميع أقرانك، وتنال الجائزة في احتفال آخر العام... آه من احتفال آخر العام: فيه يُكرم المرء أو يُهان»...**

ولقد يبتسم «عليٌّ» الحمَل، وأحيانا لا يبالي لما يسمـع؛ لأنَّه حفظه عن ظهر قلبٍ، من كثرة الترداد؛ حتى إنه ببراءته المعهودة، يردِّد بامتياز ما تقوله أمُّه، بنفس النبرة، وهو يلعب مـع لِداته وأقرانه... بل ويستعير من أمِّه قسماتِ وجهها، وحركاتِ طرْفها... مثل ممثِّل بارع التمثيل، متقمِّص لدوره باحتراف شديدٍ...

****

مِن أوَّل يوم دخل فيه عليٌّ مدرسته العزيزة، وهو يحفظ

النصوصَ عن ظهر الغيب، لا فرق بين مادة العربية، ومادة الجغرافيا، ومادة الرياضيات... بل والرياضةُ نفسُها صارت محفوظةَ الحركاتِ عنده، كببغاء يردِّد أقوالا وأفعالا لا يعي مداها ولا مغزاها...

لم يحدُث مرَّة واحدة أن توقَّف أستاذٌ عن التلقين، وحاور التلاميذ ليكتشف ما يختلج في عقولهم مِن أفكار، وما يعتلج في خلَدهم من هواجس...

نهران متقاطعان، أحدهما غزير الماء «هدَّار» (فصحى ودارجة)، يكتسح كلَّ ما يقف في طريقه، لا يُبقي ولا يذر... أمَّا الآخر فجدولٌ صغيرٌ، لا يسمَّى نهرًا إلاَّ مجازًا، كلَّما اعترضه حاجزٌ، حَجرةٌ أو حصاةٌ، استدار مِن حوله، وتجاوزه، فواصل طريقه... وفي «محيط المدرسة وبحرها» نقطةُ التقاء بين هذا النهر المجلجل وذاك الجدول المحتشم؛ والغالبُ أن يذوب الثاني في الأوَّل ويذوي، فيصير هو هو، لا فرق، ثم يتحول بعد أمد – هو كذلك – إلى نهر كاسحٍ ماسحٍ... فيستوعب الجدولَ الصغير...

****

هذه صورة الزمن في صورة المدرسة، بمدينة «الممكن»... هو دومًا يعود القهقرى، لا جديد فيه، يُعيد نفسه ويحوم حول نفسه، مثل أفعى رقطاء تلتفُّ على ذاتها، لتنقضَّ على

فريستها. وفريسةُ هذه الحية هو «المعنى، والحقيقة، والصدق، والوعي»...

أمَّا عليُّنا، فقد تأقلم مع الظرف، وحفظ كلَّ ما طُلب منه وأزيَدَ... لم ينزل يوما مِن سدَّة الدرجة الأولى؛ فهو الذي يحصد جميع الجوائز، ويبهر الكلَّ آخرَ العام: التلاميذَ، والأولياءَ، والأمهاتِ... أمَّا المعلِّمون فينصِبونه للآخرين «مثالا»، بل يتَّخذون منه دون وعيٍ منهم «تمثالا»، يعلِّقونه في كلِّ حائطٍ، وينحتُون منه صورًا في كلِّ قسم، وكلِّ ساحة:

- «انظروا إلى عليٍّ، هو يحفظ جيِّدا ما نقول له، ويحفظ حتى النبرات الصوتيةَ التي تصدر من معلِّميه، أمَّا «أنتَ»، أمَّا «أنتم»... أمَّا «أنتِ وأنتنَّ»... فدائمًا تتلعثمون، وأحسنُكم من يبلغ شاطئ الأمان «معدَّل العام»، بأخطاء فادحة، بعد كثيرٍ من التجاوز...».

******

ولقد كان ظاهرُ عليٍّ هكذا، أو بدا للجميع أنه هكذا... هو هكذا «ولِد على الفطرة»، وهو هكذا «رُبِّي على الانضباط»، وهو هكذا تحوَّل إلى «بطلٍ» في حلبة المدرسة، وإلى «رمزٍ» في بحر القسم... وإنَّ البعض ليَبحث له عن جدٍّ عبقريٍّ... أو عمٍّ، أو قريب من الأمِّ أو الأب، مِن مشاهير العلماء؛ فإذا وجد بصيص أثرٍ، أو شبهَ علاقة، قال موقنا:

- «نعَم، العلم ميراث، وعليٌّ ورثه عن فلان أو علان».

وإنَّ البعض الآخر منهم، لِيُريح ضميره، ولِيرفع الكلفة عن نفسه، يواصل قوله:

- **«أمَّا نحن، أعني عائلتَنا، فلم نرث العلم، بل ورثنا الجهل أبًا عن جدٍّ... جميعُنا حِرفيُّون، أو تجُّار، أو زرَّاع... أو أيَّ شيء آخر، إلَّا أن يكون الواحد منَّا عالما نِحريرا؛ فمِن العبث إذن أن نطلب ذلك من أبنائنا، ونحمِّلهم ما لا يحتملون... «كلُّ إناء بما فيه يرشَح»...».**

هذا عن ظاهر عليٍّ، وماذا عن باطنه...؟

هذه علانيته، فما حقيقة سريرته؟

هذا الذي يعرفه الناس عنه، فماذا لا يعرفون؟

وما الذي خفي عنهم، وعجزوا عن إدراكه؟

****

كالـمِرجل يفور ويجور...

بركانٌ من الحمم يعتلي غبارُه عَنان السماء...

غشاوةٌ رقيقة تحيط بقلبه ووجدانه، وأخرى تغلِّف عقله ومنطقه... تحتها - أسفل منها، وفي أعماقها - ما لا تراه العيون من «الحيرة، والسؤال، والبحث عن المعنى، والغوص فيما وراء الأسباب الجلية القريبة»...

كان في الحقيقة يحفظ لغيره، ولأجل أن يُرضي مَن حوله، أمَّه وأباه، ومعلِّميه ومجتمعَه... ثم يستظهر بلسانه ما لا يجده

بأحاسيسه ومشاعره؛ فتأتي الكلماتُ والجداول والمعادلات... باردةً، بل صقيعًا، هي لو ألقيت على الصحراء الكبرى لبدَّلت جوَّها، وللطَّفت من قرِّها فأحالته نسيمًا عليلا، أو بردا قد يكون قارسًا...

****

مثلَ مصنع للتعليب، تمرُّ الأوعية تحت عين الشكولاطا أو المربَّى، فتمتلئ بالقدْر المعيَّن لها، ثم تمرُّ وتترك المكان لغيرها... هكذا ألِف عليٌّ أن يمرَّ عبر الأقسام، وينتقل من معلِّم إلى معلِّم، ليُصبَّ عليه القدْر الكافي المعيَّن آنفًا، ولتُلقى عليه الكمية المبرمجة مسبقا، باسم «المقرَّر أو المنهاج»... ثم يسلِّمه معلِّمه الأوَّل لمعلِّمه الثاني، ومنه لمن بعده... ولا يزيد... وهكذا دواليك...

فلا مكان إذن للحوار، ولا للسؤال، ولا للتصحيح، ولا للمناظرة، ولا لإبداء الرأي، بلْهَ أن ينقُد التلميذ مقولةً أو ينقضُها، حسبَ فهمه، وعلى اعتبار إدراكه...

أمَّا مناسَبة الامتحان، فكانت مناسِبة ليُثبت التلميذُ فيها أنه أمينٌ، وأنه أعاد البضاعةَ سليمةً كما تسلَّمها، لم يزِد فيها ولم يُنقص منها، لم يحوِّر ولم يعدِّل... كما هي... وإلَّا فمآل النقطة «الصفرُ أو ما يقرب من الصفر»...

ولقد كان عليٌّ بحقٍّ أمينا، أمينا، أمينا...

****

تسلَّم البيتُ الهادئ، عبر البريد الإلكتروني، كشفَ النقاط، أعلاه بخطٍّ غليظ كتِب: «الرابعة متوسط»، ثم حملق الأب حول نقاط ابنه، وانتقل ببصره من الأعلى إلى الأسفل: 7، 5.5، 9، 11، 4... معدَّل الفصل: 20/6,5، والملاحظة: «إنذار» يرافقه توبيخ من أغلب الأساتذة، وتحذير عن التلميذ أنه:

- **«صار فوضويا».**

- **«ينام في القسم أحيانا».**

- **«لا ينجز واجباته المنزلية».**

- **«رديءُ الحفظ، متردِّد في الجواب».**

- **«تأخُّرٌ فجيعٌ، وتقهقرٌ فظيعٌ»...**

- **«تلميذٌ عنيد وقِح، يشوِّش على الآخرين بتدخُّلاته السفيهة»..**

راح الأب، وقد كان قبل ساعة غرِقًا في مشاغل الحياة، ومشكلات التجارة، ولقد كان ليلُه عائما، ووقتُ فراغه غرِقًا، بين عناوين الجرائد وشاشات القنوات الإخبارية... لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الإعلام الوطني، ولا الدولي، ولا الرياضي، ولا الفني، إلاَّ لاحَقَه...

راح الأب يحكُّ عينيه بشدَّة، ويقرأ الاسم مرَّات ومرَّات... وقد بدا له أنَّ ثمة خطأً، لا بدَّ أن يكون هذا الكشف لتلميذ آخر، أمَّا أن يكون لعليٍّ فلا... هذا مستحيلٌ... بل هو رابع المستحيلات...

بصرخة مدوية مفجعة، لعلَّ الجيران سمعوها والمارة كذلك، نادى الأب ابنه:

- **«يا علي، تعال إلى هنا، أسرع...».**

****

بخطًى ثقيلةٍ، مطرِقا رأسه نحو الأسفل، وقد علِم بـ«النبأ العظيم»، نبأ وصول الكشف، وهو أدرى بما فيه... وقف عليٌّ قُبالة والده، وقفةً لم يتذكر أنه وقفها يومًا ما، منذُ صغره... وهو اليوم في سنِّ المراهقة... توسَّط العشر الثانية، وجاوزها... نحو الفتوَّة... هو اليوم «يصلِّي»... وهو اليوم «مكلَّف»...

هرولت الأمُّ، وقد راعها ما سمعت، وأفزعها ما رأت؛ ثم استرقت السمع، واجمةً مطرِقة، كجنديٍّ يجرُّ ذيول الهزيمة، وهو قافل من معركة خاسرة... ولما تيقنت بالخبر الفظيع، سلَّمت نفسها للوقوع على الأريكة باكية، لا تجرأ على النظر في عينيْ ابنها، ولا تقدر على إيجاد مبررات وتعِلاَّت تطفئ بها غضب زوجها المتزايد...

أصلًا، لم يكن لها علمٌ بما يقع في صفِّ عليٍّ، وقد انشغلت عن ابنها سنين، في مهامِّ البيت والمجتمع، وبين ثنايا الزيارات والضيوف والمناسبات والتسوُّق... لقد انمحت من أجنُدتها عباراتُ التشويق الأولى، وكلماتُ التشجيع في بداية مشواره الدراسيِّ، منذ أمد بعيد... لقد نسيت كلَّ ذلك... ونسيت أنها نسيت...

****

واتت الشجاعةُ عليًّا، ورمى بنفسه مِن سماء الجوِّ المكفهِّر وجهة الأرض القفر، لا يبالي أتتمُّ له النجاة أم يهلك؛ لأنه فيما بدا قد خسر كلَّ شيء: النقطةَ، والمعلِّمين، والأصدقاءَ، والأبَ، والأمَّ... بل، وبعضًا مِن ثقته في نفسه... فقرَّر أن يكون صريحا - أو وقحا باعتبار - ويسأل أباه هذا السؤال:

- «أبي... أبي... أبي... هل يمكن أن أسألك سؤالا؟».

الأب، في عبوس:

- «نعم أسرِع، ولكن لا تبرِّر لِكسلك وتقهقُرِك الرهيب».

عليٌّ، مع شيء من التلعثم:

- «أبي، لو أنك يومًا قرأتَ لافتة أمام مبنًى، ولم تفهم ما كُتِب عليها، هل تُراك تدخل ذلك المبنى، وتقتحم عتباته على كلِّ حال؟».

الأب:

- «طبعا لا، وماذا تعني من هذا السؤال الساذج السخيف؟».

الابن السائل:

- «أبي، قرأتُ في مادة المحفوظات، في عامِي الثالث من المدرسة، حديثا لرسول الله ﷺ: «النظافة من الإيمان، والوسخ من الشيطان». وكنتُ أردِّده تبعا للمعلِّمة، وتصحِّح لي وللتلاميذ الخطأ هكذا: «الإيمانِ» بالكسر لا بالفتح، وإذا وقفتَ فقف على سكون: «الإيمانْ»... تذكَّروا هذا جيِّدا... ثم حفظناه ونصوصًا

أخرى كثيرة، وجاء يومُ الامتحان، فسألتْنا عن بعضها- وأجبتُ بامتياز...».

الأب، مستعجلا عليًّا:

- «واصل، إيت بملاحظتك من الآخِر... ولا تُطل عليَّ اللفَّ والدوران...».

عليٌّ، في هدوء، وقد علت سحنة وجهه بعض علامات الخجل:

- «نعم أبي، ساعة كنتُ أقرأ الحديث وأحفظُه، كانت عيني مسمَّرةً على حائط القسم المتَّسخ، وعلى صفحة الطاولة تغشِّيها خربشاتٌ بكلِّ لون وشكلٍ، وعلى أرض القسم وهي مزيج من الحبر والورق المقطَّع وآثار برْيِ أقلام الرصاص... ثم نظرتُ إلى مئزر المعلِّمة وعليه بعض الخرائط من العَرَق، كأنه لم يُغسل منذ زمن بعيد... وكذا حال بعض التلاميذ الباعث على الأسف... وكنت حينها متحيرا: هل الحديثُ يعنِينا؟ هل الرسول عليه السلام يأمرنا وينهانا، لنعمل ونُحسن؟ أم أنه كان حريصا على أن نحفظ ونردِّد ما قاله لفظاً؟».

الأبُ، وقد بدت على عينية أماراتُ الاستغراب:

- «وماذا بعد ذلك؟».

عليٌّ، بعدما تململ في وقفته، وقبض يده اليمنى على اليسرى، كأنه يستعدُّ ليقول شيئا غير مستساغ... قال:

- «نعم، في جميع المواد حفظتُ ما حُفِّظت عن ظهر الغيب، بالرسم وبالشكل غالبا، وكثيرا ما لا أفهم ما أكرِّر، ثم أستظهره حين الحاجة، ولكني لا أجد له أثرا في قلبي، ولا على جوارحي، ولا في الشارع، ولا بين جدران المدرسة... عذرا أبي، وأحيانا حتى في البيت... بيتِنا الجميل الحبيب... أحيانا - لا دائما - أحيانا فقط - نفعلُ خلاف ما نقولُ، وخلاف ما نحفظُ، وخلاف ما نعتقدُ...».

الأب، وقد تمالك من غضبه، وعلَت صوتَه نبرةٌ من الحدَّة الصامتة الدفينة:

- «مثلا، مثِّل لما قلتَ؟ هيا، استعجل... ولا تكن وقحًا...».

- «أبي، جيرانُنا...».

- «مَن تقصد، أبا عمرَ الجلْف، ذلك الذي أفسد علينا كلَّ شيء؟».

- «نعم أبي، أقصد أبا عمر، بغضِّ النظر عن حاله، وعن حقيقته: أليس في عرف الشرع والناس جارًا لنا؟».

سكتَ الأبُ، ولم يجب... وواصل عليٌّ سلسلة تحليله بتثبت، حتى لا يجرح كرامة الوالد:

- «أبي، في آية الجيران، التي أحفظها جيدا، يقول الله تعالى: «... والجار ذي القربى، والجار الجنب...»... وفي قول الرسول عليه السلام: «واللهِ لا يؤمِن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن... من لا يأمن جارُه بوائقه»... في الآية وفي الحديث جميعاً تهديدٌ لنا صريحٌ... أنَّنا في صراعنا مع جارِنا، نحن على حافَّة هاوية سحيقة،

قد نهوي فيها لا قدَّر الله، عنوانُها «الكفر»... أي «زوال الإيمان»... كفرُ نعمة الله تعالى.... أليس كذلك أبي...؟».

ثم واصل عليٌّ كلامَه، بثقة أكبرَ، وقد لاحظ أنَّ أباه صار أهدأ وأكثر استعدادا للاستماع مِن ذي قبلُ:

- **«ولكن، هل حِفظُنا لهذا المعنى نفعَنا وغيَّر مِن حالنا...؟ ألسنا في حربٍ ضروس مع أبي عمر، وأمِّ عمر، وعمرَ... وإخوته وأخواته؟».**

نطقت الأمُّ بعد طول سكوت وشدهٍ ووجومٍ:

- **«يا بنيَّ، فهِمنا بعض ما قصدتَ، ولكن ما علاقة ذلك بالنقاط والدراسة والفشل الذي مُنيتَ به، حتى جعلتَنا وصمة عارٍ أمام الناس؟ أليس ذلك دليلا على أنك تخالف معنى الاجتهاد الذي أمرك الله به؟».**

عليٌّ المدلَّل دائما من قِبل أمِّه، يجيب:

- **«نعم أمِّي، هو كذلك، أنا أخطأتُ الطريقة... غير أني بذلك كنت أحتجُّ على تلك اللائحة أمام المبنى، «ورفضت هذه المرَّة دخول المبنى مع غياب المعنى»، أنا لا أفهم ولا أفقه يا أمِّي... فأنا في عِداد الفاشلين... وحفظي لا يحرِّك ساكنا... نعم أمِّي (التفت إليها)... نعم أبي (ركَّز على عينيه)... أعتذر إليكما... وأطلب منكما الصفح والغفران... نعم، أعترف بالخطأ ألف مرَّة...».**

ثم واصل كلامه:

- **«لكن أمِّي، أتدرين متى كانت لحظة التحوُّل؟».**

- «لا يا بنيَّ، متى كان ذلك؟».

- «أمِّي، حكيتِ لي قبل شهورٍ ظروفَ ولادتي، بالتفصيل الدقيق، ومِن حينها هاج بركان قلبي، وغلى مِرجل عقلي... مِن ذلك الوقت وأنا أحاول أن أقلِّص الفارق بين ما نقرأ في المدرسة، وبين العلاقة فيما بيننا نحن المتساكنين في الشارع وفي المدينة المنكوبة... وأتساءل: لِم هذا الحقد والبغضاء والفتنة التي تحصد منَّا ومِن مسلمين آخرين أمثالنا، من الجهة الأخرى، تحصد أرواحا وأموالا وأعراضا؟».

- «مِن ذلك اليوم وأنا أبحث: هل دينُنا أمرنا بهذا؟ مِن يومها أي منذ الصائفة الماضية، صرتُ إنسانا آخر، وتشكَّلت لديَّ قناعات أخرى...».

- «أمِّاه، أبتاه - قال عليٌّ بهدوء - أكره الببغاوات، وأحبُّ البلابل؛ ذلك أنَّ الأولى تردِّد ما تسمع بلا معنى... أمَّا الثانية فتشدو بأعذب الألحان مِن ذاتها، ومِن حرِّ إرادتها... لا أحد يملي عليها ما تقول...».

****

خيَّم الصمت صالونَ البيت المرتب بعناية، وسُمع صوت الأذان، أذان المغرب، صدَّاحا:

- «حيَّ على الفلاح... حيَّ على الفلاح...».

استغفرَ الوالد، وسارع إلى الحمَّام للوضوء (على غير عادته) ثم قال لعليٍّ: هيا، توضَّأ لنلحق بالجماعة في المسجد المجاور (على غير عادته) ولقد نُسِّي أن يُشعل التلفاز ويجلس إلى أخبار المساء (كعادته).

أمَّا الأمُّ فكانت تذرف دموعًا، لا تعرف أهي للحزن أم للفرح... غير أنها أكيدا، كانت دموعاً تنزَّل على القلب فتغسِله، وتُنصت لصوتِ الطمأنينة والسكينة، صوت الضمير المتيقظ، وهو يغمر عروقها بردا وسلاما...

كأنها اللحظة وُلدت من جديد... لحظةَ فهمت مكنون ابنها، لحظة قرأت المسافة بين ما ألِفته وألفه عامَّة الناس، وبين ما حرَّك وجدان عزيزها وحبيبها، وقد فقِه معنى أن تصل القولَ بالفعل، والفكرةَ بالحركة...

****

التفتت فاطمة إلى لوحة زيتية مكتوبة بخط جميل، معلَّقة إلى جوار باب الصالون، وقرأت ما كتِب عليها بصوت يُسمع، وقد علتها الدموع السخينة:

«الشاطئ للصغار، والبحر للكبار».

وأقام المؤذن للصلاة:

- «الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله... لا إله إلا الله...».

كتابك
Kitabook

الفصل الثالث

هيهات للضمير أن يصمُت

«من حُسن الحظِّ ، أنَّ زمان المغالطة والمزاح قد انتهى ؛ لأنَّ عهد المحنة قد حان ، ولعلَّها تنضُج ضمائرُنا . فالشكر للقدَر على المصائب تُصيبُنا ، إذا كان بها صلاح أمرنا »

مالك بن نبي

kitabook

كتابك
Kitabook

علَى ما يُرام تمت عمليَّة التسجيل في الجامعة، ولقد كان عليٌّ يحلم بهذا اليوم منذ سنين، وكان ينظر إليه أنه سيكون بدايةً لزمن الخلاص والانعتاق، وستزول كلُّ أسباب التعب والمعاناة والشقاء الذي أضناه طويلا، وهو لا يزال حدَثاً غضَّ العود، طريَّ الفؤاد؛ وقد زاد من أوهامه أنه علَّق آماله في صورة ملائكيَّة للحياة، استقاها من روايات خيالية أدمن على مطالعتها في الشهور الأخيرة؛ وصقلها بأفلام وردية لازَم مشاهدتها، بخاصَّة صائفة هذا العام؛ فَراقَه وأعجبه أن يكون فارسَ الأحلام، والبطلَ الذي لا يُقهر ولا ينافَس، وصاحبَ الكلمة الأخيرة، والمصارعَ الذي يغلب كلَّ الناس، ولا يغلبه أحدٌ...

جميع هذه المعاني النرجسية ترسَّخت في «لاوَعْيه»، وتنامت في مخزون إدراكه، وعمِلت فيه عمل قطرات الماء، وهي تُديم الحفر على صفحة الحجرِ الصَّلد، فتلينه بفعل الزمن، وتثني مِن عزمه، وتقتل فيه الكثير من أمارات الخير والبرَّ، ومعاني الإتقان والإحسان؛ إلاَّ ما كان عفوًا أو فلتةً أو عنادًا.

هكذا كان عليٌّ، وقد تجمَّعت في بحر فؤاده المتناقضاتُ، فهو من جهةٍ يتَّسم بالموهبة والذكاء وحضور البديهة، مما ورَّثه شخصية مهيمِنة متحكِّمة لا يلين لها جانبٌ؛ وهو من جهة أخرى يستسلم لكلِّ جميلٍ ومُغرٍ، مما يعتقد أنه مِن قبيل الحلال، أو يرى أنه لا يتجاوز حدود الحرام الصُّراح؛ إلَّا أنَّ المزالق لا تبدو للرائي مهاويَ سحيقةً بعيدة القاع، وإنما هي

تتبدَّى له على شكل درجات وطيئة لسلَّم هادئ متدرِّج، قد لا يحسُّ المرءُ وهو ينزل القهقرى عليه، حتى يجد نفسه أسفل السافلين...

****

ولقد مرَّت سحنةُ الفتى وشكله ولونه بمراحل متقلِّبة منذ الصِّبا، وتبدَّلت بعضُ التفاصيل الجزئية في لونه مرَّات؛ لكنه في الخطوط العامَّة بقي هو هو؛ ولقد استقرَّ على شكلٍ تميِّزه صفحة وجهه الدائريِّ الصغير... تعلوه عينيان صغيرتان مشعِّتان، في سواد فاحمٍ، مثل حبَّتين من الزيتون الأسود المدوَّر، تتحرَّكان بسرعة داخل بحرٍ من البياض الناصع... يعلوهما حاجبان صغيران لا يكادان يَظهران... وبشرته ليست بالبيضاء ولا هي بالسمراء، هي بين بين.

وقد مزج لونَه من لون والده ووالدته فاطمة؛ فهو وسط في كلِّ ما يميِّزهما خِلقة وخُلقا، طولا وعرضًا، مِزاجا وعقلا، أفكارا ومواقف... فكأنَّه بالفرجار وُضعت نقطة النصف بينهما بإحكام، ثم ولد هو في تلك النقطة بالذات، لا يميل إلى هذا الطرف ولا يحيد إلى ذاك؛ ولِذا تجد كلَّ واحد منهما يستدعيه إلى الجهة التي يقف هُو فيها، ويرى فيه امتدادا له هو؛ لكن من الزاوية التي يقف هو فيها... وبالتالي فهما لا يصدُقان كلية، ولا يكذِبان كلية؛ حين يصفانه أو ينسبانه إلى ذواتهما...

****

سكَن الطالب طيلة سنواته الأربعة، في حيٍّ مجاورٍ للجامعة، مخصَّص للذكور فقط، لا يحتاج إلى شاحنة للتنقُّل بين المبيت والدراسة؛ والحيُّ قديمٌ نسبيًّا، غير مرتَّب البتَّة، تنتشر القذارة في ممرَّاته؛ ولكنَّ أسوء ما فيه دوراتُ المياه، والحمَّامات الجماعية، التي لا تكاد تسلم من بقايا مياه متعفنة تسيح على أرضها...

أمَّا عاملات التنظيف فهنَّ نساءٌ غطَّى الشيب نواصيهنَّ، وتعَّرَّجت جباههنَّ، حتى بدت كجبال «أسكرام» القديمة؛ نساءٌ يعملن من أجل قوت يومهنَّ، وهنَّ دوما ساخطات على حالهنَّ، وبخاصَّة من تصرُّفات بعض المشرفين على الحيّ المتغطرسين، وبعض الطلبة الطائشين؛ فهنَّ دائما يُحشرن في خانة المتَّهَمات بكلِّ ما ليس على ما يرام... حتى ولو لم يكن لهنَّ فيه قدمٌ ولا ساقٌ، ناقةٌ ولا جملٌ... ولا يتذكَّرن يوما أنهنَّ سمعن كلمة شكر من هؤلاء، ولا ابتسامة عرفان من أولئك...

ومن المفارقات أنَّ عليًّا كان لطيفا مع العجائز العامِلات، وكان أحيانا يهدي لهنَّ بعض الهدايا الرمزية: علبة ياوورت، حبَّة موز، قارورة مشروب غازي... أو حتى بعضَ الكعك الذي يصله من عائلته من حين لآخر...

****

وأمَّا الغرفة التي كانت من حظِّ عليٍّ فهي مخصَّصة لأربعةٍ من الطلبة، ثلاثٌ منهم حاضرون، والرابع غائب؛ وهم

يتراوحون مع عليٍّ في العلاقة، بين الهادئة الساكنة أحيانا، والمتوترة المضطربة أخرى... ولكنَّها أبدا لم تصل إلى حدِّ الشجار اليدويِّ، أو التَّسابِّ بالألفاظ الفاحشة والنابية، شأنَ بعض الغرف المجاورة؛ وقصارى ما ينتهي إليه الاختلاف أن لا يكلِّم الواحد منهم الآخر يومًا، أو يزيد... ثم ما يلبثُ الواحد منهم يحتاج الآخر، فيكسر الجليد، ثم يقتحم ساحة صديقة، ولا يجد إلاَّ الاستجابة والحاجة المتبادلة للسِّلم وللعافيَة...

****

وفي الجامعة تعلَّق عليٌّ بصُحبة لا هي بالصالحة ولا هي بالطالحة؛ هي صُحبةٌ خلَطت عملا طيِّبا بآخر فاسدًا، جميعهم من الذكور، ولم يعرف صحبة فتاة إلاَّ ما كان من كلام محتشَم، وتبادل لحوار على عجلٍ...

فكان الفتى يترنَّح بين هؤلاء الصحبة وأولئك، يتقلَّب بين فعل الخيرات والحسنات غالبًا، واجتراح بعض السيئات والتجاوزات نادرًا... فتارةً هُم في مسجدٍ يسمعون لدرس أو خطبة، وعيونهم تذرف الدموع، وبخاصَّة يوم الجمعة، وهم ملازمون لصلاة الجمعة؛ وتارةً أخرى تجدُهم على مقاعد السينما يشاهدون فيلما لا يخلو من الإثارة... وذئابُ الشهوة تنهَش أفئدتهم، يُسمَع لها عَويل خفيٌّ، لا يكاد يُفصِح، وما ذلك إلاَّ لبقيَّةٍ مِن حياءٍ فيهم...

ولم يكن لعليٍّ حاجةٌ إلى السينما، لتوفُّر الأنترنت وشبكات عرض الأفلام مجانا؛ غير أنَّ «الصورة البطولية» التي تُعطى للشاب الحر، مِن مشاهدها أنه يقتحم قاعات السينما، ولا يخشى أحدا... ولعلَّها تكون صورة قديمة نوعًا ما، لكنَّ كونه من مدن الداخل، جعله متأخرا بأعوام على ذهنية العاصمة، على الأقلِّ في شؤون الترفيه، والعلاقات، والمظاهر...

ولا يخفى هذا الفارق المظهريُّ على عارفٍ: في ملبسه، وطريقة مشيه، وألفاظه، بل ومشاركته في الحديث عن «مشاهير كرة القدم»، وعن «نجوم السينما العالميين»... ولكنَّ أكثر ما يفضحه هو علاقته بالفرنسية، وقلَّة استحضاره إياها في حديثه اليوميِّ... وإن فعل، فهو أحيانا يكون محلَّ تفكُّه وتندُّر...

******

ويومًا بعد يومٍ بدأت الصُّحبة الخيِّرة تهرب من طريقه، وتبتعد عن سبيله، فتتجمَّع بين يدي الفتى رفقةٌ مِنها الهزيل الكسول، من كلِّ نَطيحةٍ ومما أكل السَّبُع؛ ومنها الغُول الشرس، من كلِّ متربِّص مَصلحيٍّ لا يهمُّه من الحياة إلاَّ نفسَه ومصلحته، لا غير... والسببُ هو تلك الروح المتسلِّطة التي تغشِّي قلبَ عليٍّ، وتُغرق صفات الجمال فيه في صفات القبح، ونفسُ المرء عدوُّه الأول والأكثر شراسةً، فكلُّ عدوٍّ

آخَر ما هو إلاَّ انتهازيٌّ خنَّاس، سهلُ الالتصاق كما هو سهل الانفصال...

نفسُ المرء عبوديته أو حريته، سماؤه أو أرضه، قيده أو انطلاقه، مُعينه أو مثبِّطه، صديقه أو عدوُّه، ليله أو نهاره، نجاته أو هلاكه، جنَّته أو ناره...

لكن، أنى للضعيف - من بني البشر - من انتزاع النفس التي بين جنبيه، إلاَّ أن تقطَّـع قلبُه؟ فهل يملك عليٌّ أن يرمي نفسه بعيدا عنه، ويبقى هو هو، ولا يصير إنسانا آخر، ولا يتشوَّه؟

****

ولقد باشر عليٌّ دراسته في الجامعة كباقي الطلبة، وحاول التزام الحضور بما أوتي من حِرص لعلَّه في هذه كان أفضل من كثير من الطلبة؛ وما ذلك إلَّا لما لازَمه من خوفٍ بريء مِن والديه، الذيْن لا يغادران عينيه وهما يسألانه عبر الهاتف تارة، وعبر السكايب أخرى:

- «هل سجَّلت؟

- وهل قُبِل التخصُّص الذي اخترته؟

- وماذا عن معلِّميك؟

- وهل أنت تُذاكر دائما؟...».

فيجيب في هذه الشؤون بالإيجاب غالبا، وهو صادق فيما يقول.

وما إن يتحوَّل سؤالهما إلى عنايته بصلاته، وإلى صُحبته ورُفقته، وإلى تحرُّكاته وخرجاته - وهما لا يملاَّن من السؤال - ما إن يتحولا إلى هذا الركن حتى يلوذَ عليٌّ بالتعريض أحيانًا، ويتهرَّب من السؤال أخرى؛ ولكنه مع ذلك لا يتعمَّد الكذبَ، ولشدَّ ما يخشى الكذبَ، ويخاف تبعاته؛ وهذه لِوحدها لعلَّها قد تكون نقطةَ تحوُّل في حياته... والمأمول أن تكون...

****

ذات ليلة باردة، تصفِّر الرياح فيها على زوايا مباني الحيِّ الجامعيِّ العتيق، وتميل الأشجار الكثيفة المتناثرة هنا وهنالك، تكاد تسقط أرضًا... بعد العَشاء في مطعم الحيِّ... ثم بعد ساعة من السمر في مقهى الحيِّ، وبعد تداوُلِ مواضيع شتى مع بعض الذين صبروا له، وصبر لهم... في كلام فارغ، ممجوج، مكرَّر... حول الأحداث، وبخاصَّة مما قرؤوه بحر اليوم في عناوين الجرائد المتداولة، التي تعمل حريصة على تسويد البياض، وعلى إضافة القتامة للسواد؛ وعلى اغتيال كلِّ معنى من معاني الخير والتفاؤل...

ولقد كان اليومَ يومُ الثالث عشر من فبراير...

... التفتَ الفتى بُرهةً، وكأنَّ داعٍ من السماء نزل عليه،

أو هو ملَك كريم أدار رأسه بقوَّة وجهة شاشة النادي، فأدار عليٌّ كرسيَّه، وخرج مِن دائرة الحوار مع أصدقائه، ثم ألقى السمع، فإذا هي حصَّة تلفزونية، أنجزتها قناةٌ حول الآثار الوخيمة للقنبلة النووية الفرنسية، التي فجِّرت في صحراء الجزائر، بمنطقة «رقـــان» عام 1960 للميلاد. أي عامان قبل الاستقلال... والشريط معروض بمناسبة الذكرى السنوية للحدث الفجيع الفظيع...

ومما أفزعه تلك التشوُّهاتُ التي لحقت الزرع والضرع، ولم يسلم منها الإنسان عبر أجيال، وهي اليوم تُتوارث جيلا بعد جيلٍ، مما جعل من جغرافية «عينِ التجربة» المسمَّاة «حمودية» قطعةً منتزعة مجتثة من جسد الجزائر المنهوك، بل من جغرافية الأرض المشوَّهة المظلومة...

ولقد كانت الصور صادِمة، والكلمات القوية لأهالي المنطقة، والآثار الكارثية للقنبلة، وغفلةُ الناس من الجزائريين، ومِن غيرهم، بل كانت غفلتُه هو... عن أمرٍ يهمُّه أساسًا، ويعنيه ابتداءً... هذه الغفلة كانت مثلَ بذرة زُرِعت في قلبه، فبدأت تنمو بسرعة وهيجان في مستقبل أيامه، وتستولي على سفوح وجدانه المجدِب... وبدأ الألم يكبر معها، ثم يكبر...

ويحاول المعذَّب المنهوكُ بما أوتي من قوة أن يلقي بالهواجس جانبًا، ويتعمَّد طرد الوسواس من ساحته... فيجتهد في اختلاق الأعذار، ويلقي باللائمة على «المدرسة»

التي لم تنبِّهه إلى هذه الكارثة وغيرها، ثم على الجامعة، التي لم يتعلم فيها سوى ما لا علاقة له بالواقـع... وهو الطالب في تخصص «الزراعة»... كما يحسب ويزعم ويعتقد.

لكن، هيهات للضمير أن يصمت بجرَّة قلمٍ، وهيهات أن تكمَّم أفواهه ببساطة؛ فالضمير جَهورُ الصوت، صامتٌ طويلا، حليمٌ حكيم، متريِّث، لا يستعجل ولا يكابِر، ولكن يتحيَّن الفرص؛ فقد تواتيه وقد لا تواتيه... فإذا ما ظهرت له بارقةُ أملٍ في فرصةٍ، صرخ صرخته المدويَّة، وغمر صاحبه بما لا يحتمل من الأدلة والحجج القاهرة القاصمة، التي لا تردُّ...

******

طلب عليٌّ فنجان قهوة آخَر، وبدا له بعد أن أغمض عينيه دقائق، وارتشف بنشوةِ العاشق جرعاتٍ منها، ثم تنفَّس الصعداء... بدا له أنه أخيرا قضى على الصوت المنبعث من داخله، وأسكته، بل أرداه أرضا، ولعلَّه أماته وقتله إلى الأبد... لكنَّه، ما فتئ يتحسَّسه ويتجسَّسه، وقد وجد معه حلاوةً وسعادةً لا توصف، مقرونة بألم وضيق تنفُّسٍ لا يُحتمل.

قام، ودفـع ثمن قهوته، وودَّع الجلوسَ من أصحابه وسُمَّاره... ثم ودَّع النادل البشوشَ المدعوَّ «مراد»، العامِل في المقهى، بكلمات مرتجفة، لا يخفى أثر اهتزازها على مَن

سمعها... كأنَّ مسًّا من الجنِّ ألـمَّ به... فغادر.. وجهة غرفته... هائما سائحا... وهو لا يدري ما يخفيه القدر... وقدر الله لا يعرف الصدفة ولا العبث... قدر الله حكيم...

كتابك
Kitabook

الفصل الرابع

النقطة صِفر... عينُ الجحيم

«تحويل الماضي والسيطرة عليه هو العقيدة المركزية للطرف المسيطر والغالب. لقد تبيَّن أنَّ أحداث الماضي ليس لها وجود موضوعيٌّ ، ولا تحيا إلاَّ في السجلات وفي الذكريات البشريَّة. الماضي هو ما اتفقت عليه السجلات والذكريات.

وبما أنَّ الغرب يسيطر بشكل تامٍّ على كلِّ السجلات ، كما يسيطر على عقول أتباعه. فهذا يؤدِّي إلى أن يكون الماضي الشكلَ الذي يصنعه هو باختياره. ولا حظّ للشرق فيه» (بتصرف)

(جورج أورويل ، رواية ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون)

Kitabook

كتابك
Kitabook

بين الجدران الأربعة للغرفة رقم 32، العمارة A، من الحيّ الجامعي المتهالِك؛ وجد عليٌّ نفسه وحيدًا؛ فرفاقه لما يدخلوا الغرفة بعد في هذا الوقت من الليل؛ أحدهم كان معه في المقهى، وهو يواصل سمره هنالك؛ والآخَر مسافر إلى بلده لبضعة أيام، لشهود مناسبة عرسٍ في عائلته، والثالث غادر ولم يعد إلى الغرفة منذ بداية العام...

بين الجدران القاتمة اللون، أخذ جهازَ الكمبيوتر اليدويّ القديم نسبيًّا، وفتحه، ثم كتب «رقـــان، 1960» باللغة العربية أولا، في محرِّك البحث «غوغل»، ثم باللغة الفرنسية «reg-gan 1960»؛ وعوض أن يقرأ تعريف التجربة، ويتتبع آثارها، راح يمرِّر جملة من الصور الحيَّة: بَشرٌ لهم سحنة وجه جزائرية مثله، مشوَّهون تشوُّها كبيراً، منهم أطفال ونساء ورجال من كلِّ الأعمار... ووجه البعض منهم غريب كلَّ الغرابة عن تقاسيم البشر، فهم إلى مخلوقات من عالم آخر أشبهُ، لا تكاد تميز بين فم الواحد منهم وأنفه، ولا بين ناصيته وجبينه...

****

صور لنباتات صحراوية، بخاصَّة منها النخيل، وشجر الرمان والعنب، لحقها الإشعاع النوويُّ، في مسافات بعيدة عن نقطة الصفر، ولا يعرف عليٌّ أهي من آثار «اليربوع

الأزرق» أم هي من آثار قنبلة أخرى مشابهة، لا يهمُّ، إن لم تكن هذه فهي شبيهة بها؛ نباتات احترقت وأصبحت حمراء أو بنية متعضنة؛ والأوراق ذبُلت بشكل غير مألوف، فكانت متلطخة بالمطر الأسود الكريه... وكلُّ واحدة منها تحكي بشاعة المشهد، وتسجل للكون قدرة الإنسان على الدمار والخراب...

أمَّا الحيوانات والطيور التي استخدمت إلى جوار البشر للتجارب النووية، بشتى أنواعها وأشكالها، فتكاد لا تحصى؛ وهي قد تحولت - حسب الصور البشعة - إلى شبه أشكال مصنوعة من العجينة بشكل رديء للحيوانات، فالقط شبيه بالقط، والحصان شبيه بالحصان، والحمام شبيه بالحمام... لكن، ثمة دائما تشوهات بالغة، تجعله صالحا لإخافة الأطفال، ولترويع ذوي النفوس المرهفة...

****

توقّف عليٌّ هنيهة عن مشاهدة الصور، وأخذ نفَسا عميقا، فكادت دمعة سخينة تسيح من مقلتيه، لكنه غالَبها خوفًا وإشفاقا... ثم بدأ يقرأ عن الكارثة، ويستعرض المعلومات بسرعة كبيرة، كأنَّه يستعجل الزمن، أو هو يحرص على أن يستدرك تأخُّره الرهيب، في معرفة شأنٍ مِن شؤون بلاده والعالَم، مما خفي عنه سنين وسنين، وجبينُه يتفصَّد عرَقا، لا

لحرارة الجوِّ، ولكن للتركيز وللاضطراب الذي أصابه جراء ما قرأ؛ حتى خيِّل إليه برُهةً أنه مثل لصٍّ، اقتحم خزانةً خاصَّة، وهو يسرع في الحصول على أكبر قدر ممكن مما فيها، لعلَّ أحدا يقتحم عليه المكان، أو يكتشف فعلته... أو لكأنه يرتكب جريمة شنعاء لا تُغتفر... فصاحب الخزانة هو الفاعل، الذي يستأثر بالسجلات والشواهد المادية، غير أنها أحيانًا تسرَّب وتنتشر، وسرعان ما يعمد إلى التعمية عليها، أو تعويمها في صور شبيهة، ووثائق مزورة موهمة... ويختلط بذلك الصواب بالخطأ، الحدث بالصنعة، الصدق بالكذب... فتفقد المعلومة، والصورة، والرمز، والحقيقة... معناها ومغزاها...

******

ومما قرأ عليٌّ:

- تجارب رقــان، هي تجارب لأسلحة دمارٍ شامل، نووية وكيميائية، وصواريخ باليستية؛ قامت بها فرنسا في عدة مواقع مِن صحراء الجزائر أثناء احتلالها؛ وذلك من عام 1957 لما بعد الاستقلال حتى سنة 1966...

خاطب الفتى نفسه، بصوت مرتفـع قليلا، وقال:

- «قد أفهم إجراء التجارب أوان الاحتلال، لكن، كيف أفهم مواصلتها بعد الاستقلال؟ هل هذا يعني أنَّ استقلالنا لم يكن كاملا بحلول عام 1962؟ أم أنه يعني أنَّ ما قرأته كان فيه شيء من الخطأ؟ ثم

هل التجارب متواصلة إلى اليوم، أي إلى ما بعد خمسين عاما من الاستقلال، ونحن لا ندري ولا نملك القدرة على ردِّها؟»

واصل قراءته الشرِهة، ومما جاء فيها:

- **«صرَّح الجنرال فاو أنَّ إجمالي التفجيرات بالصحراء الجزائرية بلغ 117 تفجيرا نوويا بمختلف المقاييس (تذكر الوثائق أكثر من 800 تجربة في مختلف الأسلحة والمتفجرات). وفي يوم الانفجار الموافق لتاريخ 13 فيفري 1960، على الساعة السابعة وأربع دقائق صباحا بالضبط (7:04)؛ أحسَّ السكَّان بزلزال كبير، متبوع بغبارٍ كثيف مع وميض ضوئي يمكن رؤيته من (كرزاز) ولاية بشار، على بعد 650 كلم من حمودية عين التجربة، ونقطة الصفر»...**

ثم قرأ عليٌّ، ووميض الحيرة والحقد يكاد يسابق النظرة في عينيه اللامعتين:

- **«في ذلك اليوم سجَّلت فرنسا دخولها المدويِّ إلى نادي القوى النووية، مخلِّفة وراءها نفايات نووية ملقاة فوق الأرض التي لا زالت بعد نصف قرن تخلِّف ضحايا لها»...**

****

هزَّت الريح نافذة الغرفة رقم 32، فقام عليٌّ من مقامه ليغلقها، أصلاً كانت إحدى الزجاجات مكسورة؛ فأحسَّ بأنَّ فمه قد جفَّ كلية، وغاب عنه الريق، ثم توجه إلى الحنفية وارتشف ماءً باردا، وهو يسأل نفسه: وما حال الطبيعة، والماء

في رقـان، بعد هذه التجربة بسنين وأعوام؟ لكنه، تذكَّر أنَّ الروح البشرية أهمُّ وأقدس من الطبيعة، فسأل نفسه، وماذا عن أهل رقـان اليومَ؟

ثم كتب على محرِّك البحث سؤالا، حول الضحايا البشرية، وشرع يقرأ بهدوء يشوبه قلق واضطراب:

- **«حوَّلت القوات العسركية حوالي 42 ألف مواطن من رقـــان، إلى مناطق مجاورة، فيما يشبه تهجيرا جماعيا لمنطقة برمَّتها... وحوَّلت عددا من المجاهدين إلى «فئران للتجارب»، فوضعتهم في «النقطة صفر» من القنبلة... حمودية»...**

- **«ممن نُقل إلى هذه النقطة اللعينة، كان هنالك مجاهدون مسجونون في منطقة غرب الوطن: بلعباس، ومعسكر... مدينة الأمير عبد القادر؛ ثم وضِعوا إلى جوار القنبلة، بمسافات مختلفة، بُغية دراسة أثر الشعاع النووي في الإنسان/الفأر... ولقد كان لهم ما أرادوا...**

ثم ما لبث عليٌّ أن بحث عن معنى «نقطة الصفر»، فاهتدى إلى رواية رائعة بعنوان «القطار الأخير من هيروشيما، الناجون ينظرون إلى الخلف» لمؤلِّفها تشارلز بلغرينو؛ وقد فصَّل فيها الشرح عن «نقطة الصفر»، وقال:

- **«إنها المنطقة التي تسوَّى مبانيها بالأرض، وكلُّ من فيها يقضي مباشرة، ويموت لتوِّه ميتة لا توصف»...**

ومما قرأ، وهو شبه مدرك لما يقرأ؛ لأنه لم يحتمل يوما أن «يتبخَّر إنسان»، أو «يتحوَّل إلى كربون مجفَّف»... مما قرأ، وسجَّل على دفتره الصغير، المخصص أساسا للمذكرات، هذه العبارة المثيرة:

- «في مكان أبعد قليلا باتجاه النهر، على مسافة 140 خطوة من مركز الانفجار، وضمن هذا الجزء نفسه من الثانية، تبخَّرت نساءٌ كنَّ يجلسن على الدرجات الغرانيتية، لمدخل مصرف سوميتومو الرئيس، ينتظرن بكلّ تأكيد أن يفتح أبوابه، عندما انشقَّت السماء بدلا من ذلك فوق رؤوسهنَّ... ثم واجهن لحظة الوميض، تحوَّلن إلى غاز وكربون مجفَّف، وتحلَّلت أدمغتهنَّ وأجسادهنَّ؛ كأنهنَّ كنَّ مجرَّد حلمٍ راود شيئا غريبا ليس من البشر، استيقظ فجأة، وبالرغم من ذلك بقيت ظلال هؤلاء النسوة خلف كربوناتهنَّ المنثورة هباءً، تركت آثارها على الأرصفة المتهالكة، ودرجات المصرف الغرانيتية، شهادةً على أنهنَّ كنَّ على قيد الحياة»...

****

مثل مصاب بالمسِّ أردف عليٌّ العبارةَ التي قرأها في الرواية المرعبة، بأسئلة واستنتاجات، حول هؤلاء المجاهدين، وهؤلاء البشر، مِن أهل رقـان، الذين كانوا هنالك «لحظة الانفجار»؛ ثم تحوَّلوا إلى غبار، واختلطت ذرات أجسامهم بتراب الصحراء، ولم يبق لهم أثر، لا في التاريخ، ولا في الطبيعة... بل، لم تحفظ حتى أسماؤهم للأجيال اللاحقة...

ثم ردَّد في أغوار ضميره هذه العبارة:

- **«إنهم - يا للأسف - تبخَّروا جسدا، وتبخَّروا من ذاكرة الوطن، كأنهم لم يوجَدوا يومًا، أو كأنهم لم يغادروا العدَم أبدا»...**

ثم في وجوم صمتَ، ومرَّر في ذاكرته أسماء المدارس، والجامعات، والمطارات، والقاعات، والملاعب، والمستشفيات... وكلَّ المعالم التي يعرفها، لعله يجد إحداها سمي بـ«13 فبراير 1960»، أو «شهداء رڤان، ضحايا اليربوع الأزرق»... أو ما يشير إلى ذلك، فلم يهتد... ولم يخطر له ببال أنَّ النسيان قد يهوي بالأمم إلى هذا المكان السحيق...

******

اقترب وقتُ السحَر، وعليٌّ منهمكٌ منهكٌ في اكتشافه الصاعق؛ وهو مع ذلك يجد شيئا من راحة البال، ويسمع صوتا خفيضا لا يكاد يُسمع، مِن آخر النفق... هُنالك في دهاليز قلبه النابض... سمع صوتا يعيد ترتيب الأهداف والأولويات لحياته، ويذكِّره بأمور أهمَّ من مجرَّد اللهو والجلوس في المقاهي ليلا، أو محاورة الأصحاب في مواضيع سخيفة، أو مشاهدة مباريات لكرة القدم لها أوَّل ولا آخر لها، أو سماع حصص تلفزيونية بهلوانية، ينشِّطها بعضُ مَن ليس له من سِمت البشر إلاَّ الصورة...

ثم، ما كان منه إلَّا أن «استغفر الله»، وخطرت له فكرة

جميلة، وهي أن يقوم، فيتوضَّأ، ثم يصلِّي ركعتين خفيفتين، وينهيهما بدعاء من صلب وجدانه، هديةً لشهداء رفـان.. دعاءٍ يلهج فيه للجبار شاكيا، ويضرع فيه للقهار باكيا، سائلا ربَّه الكريم أن يرحم شهداء الوطن، الذين قضوا لأجل أن يحيا من بعدهم كِرامًا سعداء؛ لأجل أن نكون نحن بشرا من جملة البشر... لا عبيدا وجهلة وخَدمًا... نحشر في زمرة الحيوانات السائمة...

ففعل عليٌّ ذلك، وغسل سخيمة قلبه، ثم نام...

****

رأى عليٌّ مِن بعيد رجلًا، فاره القامة، بنيِّ العينين، أسود الشعر، على وجهه نُدوب، يبدو أنها من آثار ضرب مبرح، تصف نظراتُ عينيه حقدًا دفينا، مشبوبا برغبةٍ جامحة أن يقول شيئا؛ إلاَّ أنه كان مكبَّلَ الرِّجلَين على حديدتين متوازيتين، وكان ظهرُه مسنَدا إلى عمودٍ صدئٍ من أعمدة البناء المعتادة، وجذعه مربوط بإحكام بسلاسل متينة، بل وحتى رأسه كان مثبتا بعناية فائقة إلى الأعلى، وكأنه يتدلَّى من علٍ... كان يريد أن ينطق، أن يقول، أن يعبِّر، أن يَسمعه أحد... لا يهمُّ من يكون... أحدٌ يكفي... حتى ولو كان طفلا صغيرا، أو أبله معتوها... لا يهمُّ...

وقف عليٌّ على رجليه، وهو يرتعش، وحاول أن يقترب

أكثر من الرجل الشبح، فحاول مرارا أن يتحرك من مكانه، لكنه كان كمن يمشي ويسرع الخطو... ثم لا يبرح مكانه... بلا فائدة يسرع ويسرع... حاول مرات ومرات... ضرب بمعصمه شيئا ما من ورائه، أو أحدا ما، لا يعرف ما هو أو من هو... كان يظن أنه هو الذي يعطِّله عن الحركة... ضربَ... قاومَ... عرِق... صرَخ... كالذي يتخبَّطه الشيطان من المسِّ... أو كالذي فرَّ من قسورة...

فجأة التقط كلمة واحدةً، بلهجة عامية، عليها لُكنة وهرانية بادية، ومما سمع وفهم قولَ الرجل:

- «قم من نومك... اسأل عنَّا... انتقم لنا...

- «اسأل نفسك: لِم أسلَمتمونا للنسيان كلَّ هذه الأعوام؟»...

- «أنتم جبناء... لا غِيرة... لا كرامة ... حرام... حرام... حرام...»...

... ثم اختفى الصوت...

فجأة، بدأت أشعَّة تعمي عين عليٍّ، وهو ينظر، ويا لهول ما ينظر، إلى جسم الرجل وهو يذوب... بدأت عظامه تغلي غلياناً يرسل البخار إلى أعلى الجسم، وقد تقطَّر اللحم كله وسار سائلا في أقلَّ من رمشة العين، والعينان قبل ذلك قد انفجرتا، واللسان تحوَّل إلى سائل لزج... وكلُّ أعضاء الجسم... وقد التصقت ملابس الرجل بالمعادن التي تحلَّلت بفعل الشعاع... حتى مادة الحديد، بل وجميع المواد التي يتكوَّن منها جسم

الشبح... صعِدت إلى السماء، فوق كيلومترين أو أكثر، في وقت قصير جدا...».

باختصار: «تبخَّر الرجل...».

****

كالمصعوق استفاق عليٌّ من كابوسه، وهو يصرخ، ويردِّد على إثر ذلك الشبح:

- « أنتم جبناء... لا غِيرة... لا كرامة ... حرام... حرام... حرام...».

سأل نفسه:

- «مَن يكون هذا الرجل؟».

- «ما سرٌّ لكنته؟».

- «ماذا يريد أن يقول؟».

- «هل له علاقة برڤـان... بحمودية... بفئران التجارب... بنقطة الصفر...؟».

- «لماذا وصمنا بالجبناء؟»

- «ما هو الشيء الحرام؟»...

ثم عاد عليٌّ إلى فراشه ...

Kitabook

الفصل الخامس

ثقب في ضمائرنا

كتب فيكتور هيجو عام 1869:

«إفريقيا المحتضرة تلفظ أنفاسها بين مخالبنا: هنا شعبٌ يحشرج بأكمله طالبا الطعام ، جوعٌ في وهران ، وجوعٌ في الجزائر . هذا ما تفعله بنا فرنسا البهية».

كتاب Kitabook

كتابك
Kitabook

«اليربوع الأزرق»... «اليربوع الأحمر»... «اليربوع الأبيض»... ألسنا أمام ألوان العلم الفرنسي؟

أزرق، أحمر، أبيض...

سأل عليٌّ نفسه - وهو يردِّد ألوان هذه اليرابيع في التجارب النووية المتوالية برقان -:

- «ما علاقة لون العلَم بالتجربة؟».

- «ألم يكن الموضوع سياديا ومصيريا بالنسبة لفرنسا... التي تخلفت في صناعة القنبلة النووية... وخافت أن تتراجع... وقد سبقها حلفاؤها القدماء: أمريكا، وبريطانيا...؟».

- «أيمكن أن تتأخر فرنسا مرَّة أخرى، بعدما تجرَّعت الأمرَّين جراء سبق بريطانيا لها في المستعمَرات، من الهند إلى إفريقيا، إلى المحيط... بل إلى الجحيم الأرضي... في كلِّ مكانٍ من هذا الكوكب الصغير، الذي تقاسمته المطاعم مثل كعك رخو، ثم نهشته نهشا لم يترك فيه أثرا لجمال ولا جلال؟».

****

كان إلى جوار عليٍّ، على مقاعد الجامعة، في المدرج الذي يحمل اسم «مدرج أحمد زبانة»، كان إلى جواره صديقه الحميم محمد، يدعى «محند» بالنون، إيذانا بأنه زوواويٌّ أصيل؛ طويل القامة إذا ما قيس بعليٍّ، نحيفٌ بشكل ملفت

للانتباه، جسمه جسم رياضيٍّ في القفز العالي، وهو مع ذلك لا يمارس إلَّا السباحة في البحر، ويمقت كرة القدم لعبا، ويحبها مشاهدة ومناصرة؛ عيناه مائلتان إلى صفرةٍ باهتة مشوبة بخضرة كأنها انعكاس للطبيعة؛ وهو حين يرمقك ويسمِّر فيك نظره تحسُّ بالقرب والأنس يغشاك؛ إلاَّ أنه في الكلام أحيانا يتلعثم، وأحيانا يردِّد الكلمة مرَّتين أو ثلاثا، ثم يواصل جملته، وينسج فكرته...

وهو شابٌّ يمقت الرتابة والتفاهة، وإن كان أحيانا يقع في شيء من ذلك، ثم ما يلبث أن يؤوب... هو شابٌّ يهوى استكشاف المجهول، ولا تعنيه العاقبة إذا كانت المقدِّمات صحيحة... شابٌّ صافي العين، له روح ممزوجة بنكهة الجبال، وخلُقٌ قد ينثني ولكنه أبدا لا ينكسر، ولا يذوب، ولا يتبدَّل...

Kitabook

******

سمع محند عليًّا وهو يسأل نفسه هذا السؤال، ويكرِّره:

- **«ألسنا أمام ألوان العلم الفرنسي؟»...**

فتدخَّل وقد بدأ يهتمُّ بما يشغل بال صديقه منذ أيام، ولقد أفصح له بذلك مرَّات عديدة... بدأ محند يجد ميولا إلى مشاركة عليٍّ بحثه، ولو في أوقات متقطعة... فتدخَّل، وقال:

- **«أيَّ أزرقٍ تعني: الداكن أم الفاتح؟».**

تحيَّر عليٌّ من السؤال، ولم يكن في مخيلته سوى الأزرق المعتاد في العلَم الفرنسي... ثم أجاب:

- **«أعني الداكن قليلا، طبعا»...**

قال محند:

- **«أليس علَم إسرائيل كذلك، أزرق اللون فاتح... مع أبيض مخطط؟».**

أجاب عليٌّ، وعلامات الحيرة شلال على جبينه، والحيرة لا تخفى إذا لم يتكلف صاحبها إخفاءها، فهي تكشف عن خفيِّ القلب، وعمَّا يخبِّئه العقل، فتسبق الكلمات... أجاب:

- **«نعم، ولكن ماذا تعني؟ وما علاقة إسرائيل بـ«اليربوع...»؟ ثم، أين هو الأحمر في علَم إسرائيل؟».**

قال محند في تثبت:

- **«إذا كانت القضية قضية منطق، فالقاسِم المشترك بين فرنسا وإسرائيل هو «الأزرق والأبيض»، ويبقى الأحمر، فإني أعتقد أنه لون الدم، وهو القربان الذي يقدَّم للإله، حتى يرضى... وحتى يعفو... وحتى يبارك شعب إسرائيل... أعني «شعب الله المختار»!!.».**

بنبرة فيها شيء من الغضب المكنون، قال عليٌّ:

- **«لسنا في مقام الهزل يا محند، أنا متحير في شأن أمر يهمُّ فرنسا**

والجزائر فقط...».

قال محند:

- **«طيِّب، الأمر يسيرٌ، هل لديك توصيل الأنترنت في محمولك؟».**

سارع عليٌّ إلى الجواب:

- **«نعم، طبعًا... ومن منا ليس له توصيل؟».**

قال محند:

- **«اكتب: إسرائيل، اليربوع الأزرق... ثم انظر، لعلنا نجد جوابا... من يدري؟».**

بعد كتابة العبارة، تمثلت أمامهما جملةٌ من النصوص، بها هذه الكلمات مجتمعة، ففتحا ملفًّا، وقرأ عليٌّ بصوت مسموع متتابع بلا انقطاع:

- **«تسجَّل تجارب رقـــان النووية ضمن أهم الاتفاقيات التاريخية بين فرنسا وإسرائيل، من خلال الاتفاق السرِّي الذي وقَّعه الطرفان عام 1953، حيث كانت إسرائيل تبحث عن الأرض لإجراء مثل هذه التجارب، رغم امتلاكها لحوالي 11 بروفيسورا في الذرة شاركوا في تجارب أوكلاهوما الأمريكية، و6 دكاترة و400 إطار في نفس الاختصاص. في الوقت ذاته، كانت فرنسا تبحث عن الحلقة المفقودة في امتلاك القنبلة النووية بعد أن تخلَّى عنها حلفاؤها القدماء: أمريكا، وبريطانيا، وامتنعتا عن تزويدها بالطرق والمراحل التجريبية الميدانية للتفجير النووي. كما استفادت فرنسا**

بشكل كبير من رؤوس أموال أغنياء اليهود لضمان القوة النووية للكيان الصهيوني، بغية تأمين بقائهم في منطقة الشرق الأوسط. هكذا ستشهد سنوات الخمسينيات أوَّل مراحل التعاون في التراب الجزائري بعد الصواريخ المتوسطة المدى التي طورتها فرنسا لإسرائيل وجربتها في منطقة بشار على مجاهدي الثورة الجزائرية، والذي أطلق عليه اسم (ياريحو) بالعبرية، ما يعني بلدة أريحا الفلسطينية باللغة العربية. فقد تم انجاز هذا المشروع عام 1957 بسرية وتكتم تامَّين».

****

صمتَ الاثنان، كأنَّ على رأسيهما الطير... لم ينبسا ببنت شفة... لم يجرُءا على الكلام... ولا على التعليق... ذلك أنَّ الداخل الجوانيَّ كان يمور ويفور... والعقل والقلب معًا يصرخان صرخة غير مسموعة، ولكنها تنفذ إلى عمق التاريخ، وتستجوب الأجيال أبًا عن جدٍّ، لعلها يوما ما تتحوَّل إلى وقود للفهم، وإلى طاقة للفكر، وإلى قوة للفعل...

العقل والقلب يصرخان:

- **«إسرائيل مرَّة أخرى... إسرائيل... تمتد يدها إلى أرضنا... كنَّا نظنُّ... ونحن الجبناء الغفَّل... أنَّها هنالك في فلسطين... فقط... في فلسطين البعيدة عنَّا... لا غير... أمَا وأنها وطئت أرضنا، واستباحت عرضنا... فهذا ما لا يحتمل...».**

بعد دقائق بدت طويلة ثقيلة... قال محند وهو يتلعثم، ويهذي ولا يتوقف عن الكلام:

- **«لكن، لكن، لكن... لماذا لا نعرف كلَّ هذا؟ لماذا لم نقرأه في المدرسة؟ لماذا لم نهتمَّ به في الجامعة؟ لماذا سكت جميع السياسيين: القوميين منهم والليبراليين، اليساريين منهم واليمينيين، الإسلاميين والبيئيين... جميعا؟ لماذا؟».**

- **«ولماذا، المثقفون، والأطباء، وجمعيات حقوق الإنسان، والإعلاميون... لماذا هم جميعا ساكتون؟ صامتون؟ كالخشب جامدون لا يتحركون؟ بل والكثير منهم يتغنى بما يمليه عليه الآخرون؟».**

- **«لماذا... فقدنا الذاكرة... وفقدنا الكرامة... وفقدنا الرفض والاعتراض...؟».**

******

رتَّب عليٌّ كلامه، متدخلا، على وقع نبرات محند، وقال:

- **«ولماذا بعضنا، أعني بعض الجزائريين، بل الكثير منَّا، يسبِّح بحمد فرنسا... ويعشق باريس و«الإليزيه»، ويقلِب الدنيا على ظهرها، ويقيمُها ولا يقعدها، لينال حقَّ اللجوء، أو بطاقة الإقامة، أو حتى ركنًا أو زاوية في بناية خرِبة، يخفي فيها سوأته، هروبا من الأمن الفرنسي... ليسمَّى عند ذلك مهاجرا، أو بطلا... ويفتخر به أصدقاؤه.. وأهله...؟».**

- «ولماذا نبتت في شبابنا لوثةُ «الحرَّاقــة» مثل سرطان يلتهم جسد وطننا، ومثل ذئب يغرس مخالبه على وجه بلدنا، ومثل عتل أثيمٍ يلكمنا فيترك ندبات وجروحا فاضحة على محيا جزائرنا...؟»

- «لماذا... لماذا... ولكن، فيم تُجدِ لماذا؟ وما هو ذنب هؤلاء المهاجرين و«الحرَّاقــة»، إذا كان مَن بيده أمرُ تعليمهم، وتثقيفهم، وغرس روح الوطن فيهم... إذا كان مَن بيده هذا الأمر، لا يتحرَّك، ولا يخطط، ولا يبادر، ولا يصنع التاريخ؟».

سكت عليٌّ فجأةً، والتفتَ إلى صديقه محند، فرماه بعينين معذَّبتين حائِرتين، ثم سأله، وهو لا ينتظر منه الجواب:

- «هل يفيد البحث عمَّن فعل هذا؟ وهل يُجدي أن نلقي باللوم على أحدٍ؟ أليس من الحكمة أن نسأل: ماذا ينبغي أن نفعل اليومَ، نحن بالذات؟ عوض البكاء على ما مضى، والندم على ما فات؟».

خيَّمت على المشهد سمفونية الصمت،

وصفَّقت الطيور بأجنحتها فوق المكان،

وسُمع من بعيد مواء قطٍّ قرمزيٍّ حَزين...

شارك الكونُ كلُّه في الحوار الحائر، وفي الجدل الجائر... شارك كلٌّ بما أوتي من جوارح أو ملكاتٍ ومواهب... لم يبق أحدٌ فوق أرض الجزائر إلاَّ وتحرَّكت فيه نخوةٌ مغمورةٌ، حتى وإن كانت أفعاله تخالف أقواله؛ إلاَّ أنَّ الشرَّ ليس مكينا في

القلوب... والخيرُ مهما بلغت الأحوال ذروتَها في القساوة، لا بدَّ أن يعود فيطفو، ثم يغسل الضمائر، ويعيدها إلى فطرتها، وإلى باريها، وإلى الرحيم بها...

سبحانه.

كتابك
Kitabook

الفصل السادس

ما نْسَامْحُوشْ فْرَنْسَا...

«المهم أننا وعينا خطأنا أولا ، ثم عملنا على تصحيح الخطأ ؛ وهذا كلُّه احتاج إلى سنوات طويلة ، وتضحيات كبيرة.

كان علينا أن نعي قيمة النقد الذاتي قبل كل شيءٍ ، ودون إنجاز النقد الذاتي بقوَّة لا نستطيع أن نجد الطريق لتصحيح الأخطاء»

نوبوأكي نوتوهارا: العرب وجهة نظر يابانية

كتاب kitabook

كتابك
Kitabook

عليٌّ، الساعةَ يقبض رأسه بين يديه، وهو لولا عِرق من إيمان يسكنه، ولولا صبغة من نخوة تجمِّله، ولولا معاني من العزة تناديه... لبكى بكاء الثكالى، ولنحب ثم لطم خديه فعلَ النائحات...

يدخل عليه محند، بعد أن دقَّ باب الغرفة صبيحة يوم من أيام العطلة الأسبوعية، ويجده وهو يشاهد شريطًا وثائقيًّا جريئًا، صنع بعناية واحترافية... يجلس إلى جواره، ويربت على ظهره، ويصبِّره، ثم يسمع معه - منقولا من اليوتوب - فصولا هامة من شريط مثير للغاية:

- «نجحت فرنسا وإسرائيل في تجاربهما النووية المشتركة، وهما تدركان حقَّ الإدراك أنَّ سكَّان هذه المنطقة سيعانون لفترة تزيد عن 4500 سنة، من وقع إشعاعات نووية لا تبقي ولا تذر، ولا تفرِّق بين نبات وحيوان، ولا بين إنسان وحجر!!».

لم يتمالك محنْد، وعلَّق قائلا:

- «لماذا لم تُقَم التجربة في أرض فرنسا؟ ولماذا في أرضنا نحن بالذات؟ وهل هذا يعني أننا سنعاني من تبعات هذه الطامَّة الكبرى والقيامة الصغرى، لأزيَد مِن ثلاث مرات عن الفترة الزمنية التي تربطنا بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام»...

همهم وتمتم، وجمع ألفاظه، وبدأ يحسب، مستعينا بقدرته المشهودة على مداعبة الأرقام:

- 1437 × 3 = 4311 سنة... وهي أقل من 4500 سنة بـ 189 سنة... يا للهول...

أوقف عليٌّ الشريط، وقرأ نصا من مقال تاريخيٍّ موثَّق، جاء فيه بالبنط الأسود:

- «كانت أوَّل قنبلة نووية سطحية بقوة ثلاثة أضعاف قنبلة هيروشيما باليابان عام 1945. تلتها قنبلة «اليربوع الأبيض»، ثم «اليربوع الأحمر» حسب ترتيب الألوان الثلاثة للعلم الفرنسي، لتختتم التجارب الاستعمارية النووية بمنطقة حمودية رقـــان بالقنبلة الرابعة والأخيرة التي سميت «باليربوع الأخضر»، وهذا في 25 أبريل 1961. و13 تفجيرا أرضيا بـ«إنأكر» الواقعة بمنطقة بتمنراست جنوب الجزائر العاصمة بحوالي 1800 كلومترا».

****

التفتَ محند إلى عليٍّ التفاتة الهرِّ المداعِب صاحبه... التفت وسأل:

- «هل سبق أن زرتَ تمنراست، أو رقـان، أو أيَّ ولاية من ولايات الجنوب الكبير؟».

أجابه عليٌّ متأسفا متحسِّرا دون أن يدير رأسه، وبرتابة لا تخفى:

- «لم أتجاوز جنوبًا ولاية ورقـلة، وبالذات زرت مرَّة «حاسي مسعود»، ولي فيها أرحامٌ، كان ذلك حين كنت صغيرا في عمر

المتوسط، فيما أذكر... وماذا عنك، يا محند؟».

لم يجبه، وكأنه لم يسمعه، وعادة يكون الكلام الذي لا يعجب سببًا للصمم؛ ذلك أنه ليس أحسن حالا من عليٍّ، ولا يعرف من وطنه إلاَّ بعض مدن الشَّمال ليس إلاَّ...

فيما هما في هذا الحوار الهامشي، تنبها إلى قول المذيع:

- **«حمل أول تفجير نووي فرنسي بمنطقة حمودية برڤـــان اسم «اليربوع الأزرق» وكانت طاقة تفجيره 60 كيلوطن، أي ما يعادل 4 مرة قنبلة هيروشيما اليابانية».**

- **«لكنَّ اليابان حوَّلت قنبلتها النووية إلى حدث عالميٍّ، فلا أحد من الناس يجهل أهوالها، ولا توجد موسوعة علمية أو تاريخية على الإطلاق لا تكتب عن «هيروشيما وناكازاكي»...**

قال عليٌّ ذلك في حيرة، وردَّد عبارةً لصقت بذاكرته منذ أمد، وهي من مصدر غربيّ نسي عنوانه: «هل سنُقتل بسبب المعرفة التي اكتسبناها؟!»، ولكنَّه حوَّرها وقال: «وهل نحن سنُقتل بسبب المعرفة التي اكتسبها غيرنا، وحَرمْنا منها أنفسنا؟»..

ثم سأل محند:

- **«وهل تعرف موسوعةً عالمية واحدة أنصفتنا وأنصفت «رڤـان»، فأرَّخت بموضوعية وعلمية وصدقية للحدث، وأدانت الجهات المنفِّذة لها في وعي ومسؤولية؟»**

أجاب محند بنفي العلم لا بنفي الوجود:

- «أنا لا أعرف، لا أنفي ولا أثبت... ولكن منطق «التأريخ للمعرفة» هو منطق «متحيِّز جدا» للكاتب صاحب السلطة، هو منطق متعصِّب لصانعه؛ فلا تنتظر من لصٍّ أن يكتب تقريرا عن نفسه، ويقول فيه: «أنا لصٌّ».

قال عليٌّ:

- ليس الأمر كما ذكرتَ فقط، بل زيادةً إلى ذلك، ثمة صورة للشرقي (والجزائريُّ شرقيٌّ طبعا، كما أنَّ الفرنسيَّ غربيٌّ بالضرورة، والإسرائيلي كذلك محسوب على الغرب رغم أنف التاريخ والجغرافيا)...

- ثمة صورة تشكَّلت عبر السنين، وترسبت بين ثنايا المستعمرات...

- ثمة صورة تعرِض هذا الشرقيَّ على أنه «أقلَّ من إنسان»، هو قد يكون مرتفعًا بمسافة قصيرة عن «الحيوان»... ولذا لا يستوجب من «البشر الكُمَّل» الشفقة ولا الرحمة... ولكن، على الغرب أن يستعمره، ويستغلَّه، ويربِّيه كما يربي حصانه أو كلبه، ليكون له تابعا، وخادِما، وعبدا...

- «العلاقة بين الغرب والشرق - يا أخي - هي علاقة قوة وسيطرة، ودرجات متفاوتة من الهيمنة المركَّبة»...

ثم أردف مستنتجا:

- «نعَم في منطق التاريخ، وفي قاموس الآخَر: الشرق موضوعٌ... الشرقُ شيء... الشرقُ مادة جامدة... الشرق لون من ألوان التجريد

المثالي... الشرقُ لوحة زيتية جميلة... الشرق عيِّنة أنثروبولوجية لا غير...»

****

مثلَ المصاب بمسٍّ، راح عليٌّ وقد أوقف زرَّ الشريط المعروض في اللقطة الآنفة... راح يبحث في مذكراته عن عبارات كتبها، وهو يطالع في كتاب «الاستشراق» لأدوراد سعيد.

* من الصور البديهية في التراث الاستشراقي أن نقول «إنه لو كان الشرق يستطيع تمثيل نفسه لفعل، ولكنه ما دام لا يستطيع ذلك، فليقُم الغربيُّ بمهمَّة التمثيل والحديث عن الشرقيِّ، من أجل الغرب... كتب كارل ماركس عن الشرق: «إنهم ما داموا لا يستطعيون تمثيل أنفسهم، لا بدَّ أن يمثِّلهم أحد»...

* إنَّ امتلاك المعرفة بهذا الشيء (الشرق) معناه السيطرة عليه، أو فرض السلطة عليه، والسلطة هنا تعني لنا (نحن الغرب) أن ننكر استقلال هذا الشيء (الشرق) ما دمنا نعرفه، وما دام يوجد بمعنى من المعاني كما نعرفه، أي إنَّ المعرفة البريطانية بمصر مثلا، هي مصر بالنسبة للغرب... والمعرفة الفرنسية بالجزائر، هي الجزائر...

كاد عليٌّ ينسى «رقان»، ويلج عالم «المعرفة والاستشراق»،

وينقل نصوصا ونصوصا طويلة تدلل على قهر الغرب للشرق، وعلى خنوع الشرق للغرب... لولا أن تدخَّل صديقهما الثالث «وليد»، وقد دخل قبل وقت قصير مجلسهما، وسلَّم، ثم تكتَّم، وهو يسترق السمع، ويشاهد ما يشاهدان، ولا ينبس ببنت شفةٍ...

****

وليد شابٌّ كامل الخلقة، مائل إلى السمنة النسبية غير المفرطة، أسمر اللون، كأنَّه من أهل الغرب الجزائري؛ جهور الصوت، على ذقنه شعيرات مبعثرة بها يخبر العالمين أنه «استرجل»، وأنه قد غادر عالم الطفولة والمراهقة، وولج عالم المسؤولية والتدبير... دارجته معتصرة من فم جده الذي أدمن ملازمته، فيها الكثير من اللغة الأصيلة القحة، التي ضاعت من أفواج الشباب منذ أمد، وهو أحيانا يستعير كلمة بالفرنسية ليعبِّر بها عن مدلول عميق في تصوُّره؛ فمثلا حين يقول: «je ne crois pas» لا تعني البتة ترجمتها بالعربية «لا أعتقد» أو «لا أظنُّ»؛ وإنما تعني الرفض القاطع لما طرح عليه، ولا سبيل إلى معاودة الأمر أو الفكرة عليه...

سخيٌّ لا يعرف كلمة «لا» حين يطلبُ في شيء؛ في غضب سريع أحيانًا يغمره ويهيِّجه، ثم يحيله أسدًا

ضاريًا، فتنتفخ أوداجه؛ وهو مع ذلك يتمالك، ولا يسارع إلى استعمال لسانه في الكلام البذيء، ولا جوارحه في اللكم والركل والضرب...

كما أنه سريع الغضب، فهو سريع العفو... هو «جزائريٌّ طيِّب» بكلِّ معاني الكلمة...

****

تدخَّل وليد، وعليٌّ في تلك الحال من القلق والغثيان، فقال في توأدة:

- **«فهمتُ ما قصدتَ يا عليّ، وأدركتُ أنَّ «المعرفة» بالحدث اليوم صارت أهمَّ من الحدث نفسِه؛ ذلك أنَّ الناس تقبَل وترفض، تسافر أو تقعُد، تحبُّ أو تبغض... بناء على معرفتها بالإنسان، أو بالمجتمع، أو بالبلد، أو بالقوم، أو بأيِّ شيء مما يُعرض عليها إعلاميًّا، ويصوَّر لها ذهنيًّا... ألا ترى أنك تحكم على العراق اليومَ مثلا، ليس بناءً على ما يحدث فيها، أو على أساس تمحُّص دقيق بها؛ ولكن بناء على أخبار وصور ورموز تركِّبها من هذه القناة أو الموقع أو الجريدة... لا غير...».**

قال محند، ولطال ما سكت وتأمَّل، فكأنَّه كان وهو في تلك الحال يمامةً في سكونها أو حمامةً في ركونها... قال، وقد استجمع كلماته ورتَّبها بعناية فائقة:

- **«صدقتَ، للجزائر تجربة فريدةٌ مع هذا، حيث إنها في محنتها**

بحرَ التسعينيات، لم تكن هي الجزائر التي نعيش نحن فوق أرضها، ولكنها جزائر وكالات الأنباء، وقنوات التلفزيون العالمية، والرسوم الكاريكاتورية، والتعليقات الجائرة الظالمة للمحللين السياسيين الماكرين...».

- «تحوَّلت الجزائر - يا أخي - إلى «صورة للدماء والاغتيالات» بعد أن كانت عبر التاريخ رمزا للبطولة والشهادة ومقاومة الاستعمار والبطولات...».

- «نعَم، التحُّول وقع في الميدان، وعلى الساحة، وفي الواقع؛ ولكنَّ التحوُّل في المعرفة، والصورة، والرمز... كان الأسوء والأشدَّ أثرا... وإنه ليختلط عليك الأمر غالبا فلا تعرف أيهما أسبق، ولا أيهما يؤثر في الآخر: «المعرفة» أم «الحدث»؟!

******

ثم تذكَّر محند أنه قرأ، قبل أيامٍ، كتابا بعنوان مثير للغاية هو «التلاعب بالوعي» لكاتب روسي مرموق ومتخصِّص، وتذكَّر مصطلح «الحشد» الذي يعبَّر عنه في لهجتنا الدارجة بـ«الغاشي»... هذا الحشد وهذا الغاشي صار اليومَ عبدا للصورة لا غير...

ثم قال:

- «لو أنك يا عليُّ... ولو أنك يا وليد... كتبتَ مجلدات عن «رقـان»، فإنها لن تحدث أيَّ أثر يُذكر؛ ولكن لو أنك باحترافية عالية

رحتَ تنشر الصور، والرموز، وعملت على إنتاج أفلام وثائقية، وأفلام تمثيلية لأحداث تاريخية، بجودة «التيتانيك» مثلا... لو فعلتَ ذلك، إذن لخدمتَ «رقـان»، و«الجزائر»، و«الحقيقة»، و«الإنسان» في كلِّ مكان...».

لكن، أنى لنا ذلك؟ - يردد محند بصوت عالٍ، معقبا على فكرته -... أنى لنا ذلك «وجدليةُ البيضة والدجاجة» تنخر في فكرنا...؟ ولكنه مـع ذلك سرد هذه العبارة المنسوبة إلى المستشرق «لوبون»:

*«الحشد يفكِّر عبر الصور، والصورة المحفزة في المخيلة تحفِّز بدورها صورا أخرى، ليس لها أيُّ صلة منطقية بالأولى... الحشد قادرٌ على التفكير عبر الصور فقط، إنه إحساس تجاه الصور وحسب. وحدها الصور تستهويه أو تولِّد فيه الرعب، أو تشغل محركات السلوك فيه».

****

عاد الثلاثة إلى شريط «رقـان»، وقد أثرت فيهم الصور التي عرضت لأطفال مشوَّهين، بخاصَّة تلك البنت الصغيرة الشابَّة البريئة، اليافعة الطرية العود... مثل ورد الياسمين، جميلةٍ جمال البادية بغير تكلف، لا جمال الحاضرة المختلط المشوب...

ثم وردت فقرة في حوار مـع رجل شيخ وقور، اسمه

«محمد الرقـاني»، من مواليد 1937... رجلٍ بسيط حادِّ النظر، مِن الشهود والمعاينين للتجربة النووية، وقد حضرها ضحيةً، ونقل عنها، باحتراق شديد، شاهدًا لا يخطئ...

وقد كان «محمد» ممرضا بالقطاع الصحي الفرنسي، رفقة الطبيب «بيشو دوغي»! ولقد كان «الرقـاني» أنذاك الجزائريَّ الوحيد الذي يعمل ضمن القطاع الصحي الفرنسي بالمنطقة...

قال شاهدُ الحدث، وهو يكاد يتقَّيأ من الغثيان، بلهجة صحراوية فصيحة:

- **«إنَّ فرنسا تعمَّدت استعمال سكَّان القصور كفئران تجارب، خُصوصا بعد إحصاء السكان لمدة 4 أشهر قبل التفجير دون استثناء أحد، قبل أن تخرجهم للعراء، غطاؤهم يوم التفجير كان السماء!! تاركين بيوتهم خالية مفتوحة النوافذ والأبواب، وهم وسط الصحراء!!».**

يؤكِّد «الرقـاني محمد» بوثوقية لا تقاوَم:

- **«إنَّ فرنسا كلَّفتهم بإخبار أهالي القصور عن التدابير التي يجب أن يتخذوها، بإغماض أعينهم، والانبطاح فوق الأرض على وجوههم، قبل الانفجار، إثر رؤيتهم للطائرة التي ستحلق فوقهم. كما تم تسليم كلِّ فرد صحراويٍّ قلادةَ كشف الإشعاع، تحمل رقما تسلسليًّا، مع تهديد كلِّ مَن يضيِّعها، بالسجن!!..».**

ويضيف محمد الشاهد:

- «إنه، يومها ارتفعت غمامة الفطر النووي في السماء، وقد رأيتها من بعيد بعينيَّ هاتين؛ لكنها سرعان ما جلبتها الرياح نحو المناطق الآهلة بالسكان!! فقد تم نقل عائلات الضباط الفرنسيين بعيدا عن مدينة رقـــان على جناح السرعة لتجنيبهم أيَّ خطر!! كما لحقهم بعد ذلك كلُّ القادة العسكريين، خوفا على أرواحهم، فيما تُرك الناس وسط غيمة من الغبار النووي، لا تستطيع من خلاله إبصار شخص آخر على بعد 3 أمتار!!.».

ثم يعقِّب الرقـاني، متحسِّرا، فاقدا الأمل في بني البشر؛ وكأنه حينها لم يكن يخاطب أحدا منهم؛ وإنما يخاطب عفاريت، أو ملائكة، أو أيَّ مخلوقات من عالم آخر علويٍّ، هي تسمعه وتراه، وهو يراها ويتوجه إليها؛ ولكننا نحن لا نراها ولا نسمعها... كأنه كان يخاطبها، ولذا راح يرفع عينيه نحو الأفق... معقِّبا:

- «وفي اليوم الموالي، تم استرجاع كلِّ القلادات، وتسجيل كلِّ التغيرات الطارئة على الأفراد، بعد الفحص الطبي الذي أجري عليهم، فيما نقلت الحالات المتضررة إلى القاعدة العسكرية لمتابعة تطوراتها، قصد معرفة آثار الإشعاع على البشر، بعيدا عن نقطة الصفر».

وواصل الشاهد كلامه، بحنق وغيض، مختلط بتوكِّل واستسلام، ورضا بالقدر، لا يعرفه إلاَّ مَن جعل الله نصب عينيه في كلِّ حين، ومَن كانت العاقبة أهمَّ عنده مما سواها... واصل كلامه، وقال:

- «استخدم في التجربة آلاف من أبناء منطقة رقـــان، وعناصر من اللفيف الأجنبي كفئران تجارب، إضافة إلى الحيوانات والحشرات والطيور، وحتى بذور نباتات لم تسلم من هذه التجارب، وكان يتم ربط الضحايا لساعات، مبكرة قبل كل عملية تفجير»...

****

وجوم، صمت، حَيرة، قلق، اضطراب، تململ.. وحركة في المكان تكاد تتمرَّد عن مقاييس الزمان والمكان... هكذا تلقَّى الثلاثة الحوار، ووليدٌ يردِّد بصوته الخشن:

- «قلادةُ الدراسة... فئران تجارب... حيواناتٌ... حشراتٌ... بذورٌ... جزائريون... بشرٌ... جميعُهم محشورون على صعيدٍ واحد؟... يا للفاجعة... ويا موتُ زر...».

ثم أضاف عليٌّ على نفس الإيقاع، ولكن بصوت أكثر رقة وضعفًا:

- «جهلٌ، تنكُّر، جُبْن... لا أزال أتذكَّر صوت ذلك الشبح الذي زارني ليلاً، وهو يردد عليَّ ما يعذِّب مسامعي اللحظة، ويعذِّبني بقوله، موجها إصبع الاتهام نحوي:

- «قم من نومك... اسأل عنَّا... انتقم لنا...

- اسأل نفسك: «لِم أسلَمتمونا للنسيان كلَّ هذه الأعوام؟»...

- أنتم جبناء... لا غِيرةَ... لا كرامة ..... حرام... حرام... حرام...»....

****

ليزيد القلق والتوتر اشتعالا وضراما، سأل عليٌّ تِربيه:

- «قرأت فيما قرأت من تقارير، أنَّ النفايات النووية، وبقايا التفجير، تسبَّبت في إبادة 60 ألف جزائري بين 1960 و1966، وأعداد لا تحصى إلى يومنا هذا... ثم تساءل:

- «هل نعدُّهم مجاهدين؟

- هل نحشرهم ضمن شهداء الوطن؟

- وهل نتذكَّرهم كلَّ عام ونحتفي بذكرهم؟

- هل نترحَّم عليهم كما نترحَّم على شهداء الثورة التحريرية المباركة؟... وهل... وهل؟؟؟

وليد يقاطع عليًّا:

- «أصلاً، هذا فصل من فصول الثورة التحريرية المباركة؛ لو أردنا، ولو استوعبنا، ولو فهمنا وأدركنا... وهم من رواد هذه الثورة لو أنصفنا...».

محند بدوره يقاطع وليدا... كأنَّ تدفُّق الأفكار والمشاعر لا يسمح للواحد منهم بإطالة الجملة، ولا بالاستئثار بالكلمة... والحقُّ أنَّ هذا الأمر طبيعيٌّ حين تبدأ الكلمات تتشكَّل على صورة أفعال، ومبادرات:

يصمت اللسان، وتطفح لغة الفعل والعمل فوق السطح... قال:

- «لكنَّ هؤلاء قد يدخلون عالم النسيان، وقد يتبخَّرون ذِكرا وقَدرا كما تبخَّروا جسدًا وروحًا؛ إذا نحن لم نُعلِ من شأنهم، ولم نتألم لألمهم، ولم نعمل على فكِّ الحصار عن أبنائهم وأحفادهم، الذين يعانون شتى المحن والإحن إلى يومنا هذا...».

******

ويوقف عليٌّ الحوار، موافقا على كلِّ ما قيل؛ لينهي الشريط المثير، وإذا بطفل صغير، قد يكون في عمر العاشرة أو يزيدُ قليلا، يقترب منه المذيع، ويسأله عن «القنبلة النووية»، وعن «التشوهات التي ترسم سحنات وجوه الناس في رڤان»، وعن رأيه في الموضوع...

وبجرأة فائقة، وصوت بطوليٍّ متجاوز لعمره، وعقل جبار وقلب واسع هما مِلك لهذا الوطن العزيز، وهما هدية للمستقبل ولكلِّ عزيز، وضمانة بأنَّ ثمة أملٌ، وبأنَّ المصير بات بيدٍ أمينة بحول الله تعالى... بهذا الصوت قال الطفل على لسان جيل كامل، لا على لسانه مفردا وفردا:

- «هذا الجيل، ما يْسَامَحْشْ فْرَنْسَا، مَا يْسَامَحْشْ...

- مَا تْظَنِّيشْ يا فْرنسا بلِّي نْسِينَا...

- ما يْسامَحش فْرنسا بَحْسَدْها وحْقَدْها...

- ما يْسامحش فْرنسا... ما يْسامحش...

- ما رَانَاشْ مَسَّتْقَلْين... ما زَالْ ما اسْتَقلْينَاش».

****

تحجَّر الجميع في مكانهم، وخيَّم على الكون وقارٌ، وسُمع للجماد وللنبات وللحيوان صوتٌ كأنه ترديد صدًى لما قاله الطفل... أو لعله التوقيع والشهادة على صدق ما قال، وعلى نبل ما قال... فمِن الناس من يصدِّقه العباد والبلاد والحجر والشجر، ومنهم من يكذِّبه حتى لسانه، ويده، ومن حوله وما حوله...

ولقد كان الطفل الرقاني ملَكا، صادِقا، مصدَّقا...

فيا عالم اشهد...

ويا قدَر استجب...

Kitabook

كتابك
Kitabook

الفصل السابع

من العلم إلى العمل: السفر الأبديُّ

يقول مفدي زكرياء:

«ليست الجزائر بحاجة إلى رجال يرفعون الفاعل ، وينصبون المفعول ، ويخفضون المضاف إليه ، ويحرّكون ويسكّنون أواخر الكلمات لا غير ...

وإنما هي بحاجة إلى رجال يرفعون رأسها عاليا ، وينصبون أقلامهم وأفكارهم للذود عن حماها ، والدفاع عن كرامتها...

رجال يخفضون رؤوس الظالمين والخونة والمنافقين ، ويحرّكون المؤسّسات ، ويسكّنون عواصف الظلامات ...

فماذا يهمنا قيام زيد أو قعود عمرو ، ما دام الاستعمار قائما لا يقعد ، والشعب قاعدا لا يقوم»

(محمد ناصر بوحجام ، السخرية في الأدب الجزائري الحديث)

كتابك
Kitabook

كبر ثلاثتهم (عليٌّ، ومحند، ووليد) وذهب كلٌّ إلى سبيل، وقد افترقوا في مدرَّجات الجامعة مكانًا، وافترقوا في اختيار المهنة حالًا، وتباينت وُجهات نظرهم للأمور كلِّها، واختلفت طريقة تصوُّرهم للكون وللحياة، وتفسيرُهم للظواهر الحضارية، بخاصَّة ما كان منها سؤالا عن تخلُّف المسلمين، وعن الفتن والمحن التي تهزُّهم هزًّا...

كبُروا، وافترقوا، وتباينوا، واختلفوا... لكنَّ أيام الغرفة رقم 32، بالحي الجامعي، وليالي «اليربوع الأزرق»، والحوارات الحادَّة أحيانًا، والجادةَّ غالبًا... كلُّ ذلك لم يغادر ذاكرتهم، ولم يطلِّق صفحة وجدانهم؛ فهم أبدا يستذكرونه، وهم دوما يغترفون من نبع المعنى الذي رشَح يومها مِن بين أصابعهم، هديةً من السماء كأنها الكوثر الأبديُّ، يحرسه نبيٌّ كريمٌ، يسقي العطشى، ويَشفع للمخطئين العائدين، التائبين المخبتين...

نعم، لعلَّهم لم يقدروا ذلك الحدث حقَّ قدره، غير أنَّ تعاقُب الزمان رسَّخه أكثر فأكثر، وجعل منه نقطة ارتكاز للمعنى في حياة كلٍّ منهم، بغضِّ النظر عن حيثيات التقلب في الزمان، وعن مستويات المعيشة، وعن نوع الوظيفة، وعن درجة الفقر والغنى، وعن منسوب الوجد والفقد...

إنَّ «المعنى» لا يستسلم لغُبار الأرض، ولا يتعثَّر في وحل الدنيا... إنه هنا، وهنالك، دائما... شامخٌ، عزيزٌ، كريمٌ... يهب أهلَه الشموخ والعزة والكرامة...

وليس في بني البشر أشقى ممن فقد «المعنى»، ولا ممن طلق «الوعي» أو تنكَّر له، ولا ممن تدحرج إلى مهاوي «العبث»، وعاث فسادا في خريف «الفوضى»، ولا ممن ضيَّع «الوجهة والتوجه»، ولا ممن أصيب بداء «الفراغ الكوني» المزمن الفتَّاك...

واحسرتاه عليه، واشفقتاه من حاله ومآله...

****

في مرحلة الجامعة لم يكن عليٌّ وأصحابُه يدركون جيِّدا أنَّ ثمة فروقا بينهم، فقد تعلَّموا أن ينظروا إلى المتَّفق حوله، ويُغمضوا العين عن المختلَف فيه؛ فلونُ البشرة - مثلا - ليس حاجزا، إذ كان أحدهم مائلا إلى السمرة، والآخر يرشح دما وحمرة، والثالث بين بين... لكن، لا حرج ولا فرق...

أمَّا لُكنة اللسان فكانت محلَّ تفكُّه وتندُّر بينهم؛ ذلك أنَّ العربية هي الجامعةُ أوان الحوار والجدل وتبادل الأفكار، وهي لغة التواصل حين الدردشة والسَّمر؛ غير أنَّ طُعم اللسان الأوَّل ولونَه يكاد يصبغ عربية كلِّ واحدٍ منهم، بما لا يخفى على أحد؛ فمِن غنغنة زائدة عند أحدهم، إلى ألفاظ بربرية عُرِبّت رغم أنفها عند آخَر، إلى دارجة مُشبعة قحَّة تفجِّر الكلمات تفجيرا عند الثالث... ولكن، لا يهمُّ، ما دامت المشاعر تسبق الألفاظ، وما دامت الألفة تصبغ الفؤاد... لا يهمُّ...

ومستوى المعيشة، والسعةُ والقتر، والفقر والغنى؛ وطرق الإنفاق والاستهلاك، والعلاقة بالمال والمنصب والمكانة... وغير ذلك من التفاصيل؛ كلُّ ذلك لم يكن سببا للتمييز بينهم؛ بل لا يكاد الواحد منهم يُظهر حقيقته أمام خلِّه، إلاَّ ما لا بدَّ من إظهاره؛ وليس بين ملبسهم - وهم طلبة - كبيرُ اختلاف، ولا بين مطعمهم؛ فقطْ كانت الهواتف، وأجهزةُ المحمول، ربما... مؤشِّرا على ذات اليد... ولكن، مع ذلك قد يخطئ الحكم، وقد تخدعك المظاهر...

ولعلَّ أبرز فرق بدا عيانا هو الفرق في العِرق، بين عربيّ وبربريٍّ، وهو لولا بعض الجدل الذي يحمل كبرَه ثلَّة من المتعصبين، مِن هنا وهنالك؛ لولا ذلك لما كان فرقًا حقيقًا، ولما أولى له الثلاثة أيَّ اهتمام يذكر؛ إذ ما العرق ونقاؤه وصفاؤه والأصول قد اختلطت بالمزاوجة، وقد تمازجت في المصير بالمصاهرة، وقد تشاركت في ضرورات الوجود... من التاريخ القديم، إلى عهد الاستعمار... إلى يوم الناس هذا...ولا تزال...

ولقد يُتكلَّف التركيز كثيرا على الفرق المذهبي بين بعضهم... ولا يُعرف ذلك إلاَّ حين النقاش العميق؛ كما يدرَك وقت الصلاة، ببعض الفروق البسيطة في الأفعال الثانوية لا في روح القيام والركوع والسجود... وفيما عدا ذلك، الصلاةُ هي ذاتها، والأفعال هي نفسُها، القبلة هي القبلةُ، والإله

المعبود هو إله الكلِّ: رحمنٌ، رحيمٌ، غفورٌ، حليمٌ، حكيمٌ... يقبل صلاة الجميع ما دامت لوجهه الكريم، ويردُّها على من لم يخشع، ومن صلَّى رياءً للناس؛ مهما كان مذهبه وانتماؤه، ومهما كان مورده ومشربه، ومهما بلغ غروره وادعاؤه...

****

أمَّا الجوامع بين الثلاثة فلا تكاد تُحصى:

- دينٌ واحد، هو الإسلام...

- وطنٌ واحد، هي الجزائر...

- لغةُ كتاب واحد، هو القرآن...

- تاريخٌ واحد، من العهد القديم إلى الاستعمار...

- ومصيرٌ واحد، إمَّا إلى خلاصٍ أو إلى قيد، إلى عزة وقوة ونصرة، أو إلى ذل وضعف وانهزام...

الجميع يتساهمون سفينةً واحدة، ويتقاسمون رحلةً واحدة؛ يواجهون عدوًّا واحدا، وهو حين يُطلق القنابل من الأرض، أو يلقي الصواريخ من البحر أو السماء، لا يفرِّق بينهم، ولا يميِّز بعضا عن آخرين... والصديقُ حين يرجو النجاة، يرجوها للكلِّ... للجميع... ولا يقبل الشرَّ لأحد مهما بلغ، ومهما كان...

****

دخل الثلاثة معترك الحياة، بعد مرحلة الجامعة، وكانت التشوُّهات تظهر في خضم السياسة والإعلام؛ على شكل موقف من منتخَب، أو مقال من صحفيٍّ في جريدة، أو شريط في قناة، أو فتنة تقع بين فَصيل وفَصيل في ربوع الجزائر الشاسعة... وكلَّ يوم تزداد أسئلة التعايش حضورا وحدَّة، ويراد للفروق أن تنفخ الورم وتفجِّر الجرح؛ بخاصَّة وأنَّ ما عرف «بالثورات العربية» قد زاد الطين بلَّة؛ وأنَّ انفتاح الإعلام على مصراعيه، لم يترك للحقِّ منبرا، ولم يمنع الشرَّ من الامتداد، حتى جرَّأه فانبرى... وهو كالأفعى، يأتيك من حيث لا تدري ليلدغك ويميتك حتف أنفك؛ أو هو أخطبوط، يتسلَّط عليك من كلِّ جانب، ويخنق أنفاس فكرك، وجوارح جسدك، ومقدرات أهلك وبلدك...

****

لكن، ربَّ ضارة نافعة، إذ شاء القدر أن يَفتح كلُّ واحد منهم حسابا في وسائل التواصل الاجتماعي، بخاصة «الفايسبوك» أو «التويتر» باسمه الخاصِّ، يعبِّر فيه عن آرائه وقناعاته، كلٌّ حسب مستواه، ووفق مداركه، ليتابع مجريات الأحداث، وليسجِّل موقفه ورأيه بحرية وطلاقة...

وذات يومٍ، كان وليدٌ يتنقل بين موقع وآخر، وصفحة وأخرى، فجأةً جاءته فكرةٌ أن يبحث عن صديقه القديم عليٍّ،

لعلَّه يجده فيتواصل معه... فكتَب اسمه ولقبه كاملا، وما هي إلاَّ ثوانٍ، حتى فُتحت الصفحة، وعليها صورته، وهو لم يتغير عبر السنين إلاَّ يسيراً، فسِمته هو هو، كما كان يعرفه قبل أعوام...

أرسَل إليه طلبَ الصداقة، وبريدا إلكترونيا، فلم يتلقَّ الجواب... وبعد أيام قليلة، عادت إليه رسالةٌ منه، مع اعتذار، وتعبير عن شوق إليه... وطلبٍ للقاء قريب، في الجزائر العاصمة إن أمكن... وإلاَّ تكلَّف السفر إليه إن كان بعيداً...

استجاب وليدٌ، ثم بحثَا سويًّا عن صديقهما محند، فلم يكن من الصعب الوصول إليه؛ إذ إنه حاليًّا استقر به القدر الحكيم أستاذا في معهد علميٍّ جامعيّ، في إحدى مدن الشرق الجزائريِّ، وهو يكتب مقالات مركَّزة في صفحته الخاصَّة، وفي بعض الجرائد غير المعروفة... بتوقيع مختصر: «محند»...

وتم للثلاثة ما أرادوا؛ وحدَّدوا الموعد في مقهى مطلٍّ على البحر، جهة حسين داي؛ وكانت ساعةُ التلاقي عاطفيَّة، إذ راح الواحد منهم يعانق ويحضن الآخر بشوق وحبٍّ، ثم استعجلوا السؤال عن حالهم وعن ما آلوا إليه، وعمَّا بعد الافتراق: الزواجُ، الأولاد، الوظيف، مدينة المستقرِّ، الصداقات، الحماقات...

وهكذا، لم يكن يقود الحوار منطقٌ معقولٌ، إلاَّ ما كان

من خواطر تتدافع بينها، ومن حين لآخر يتفكَّهون ببعض ما جمعهم، فيعلُو الضحك المكانَ، ثم يعودون للحديث كسابق ما كانوا...

إلى أن عادت «رقان» إلى مركز الاهتمام، وتحوَّلت إلى موضوع محوريٍّ للسؤال:

- «ترى، هل تغير شيء في ملفٍّ رقان؟

- هل لا يزال الناس هنالك، والأطفال بالخصوص يعانون؟

- وماذا عن عمي محمد الرقاني، هل هو قيد الحياة؟

- هل اتصل أحد منكم به؟

- وعن الطفل الذي لم يسامح فرنسا، هل عرفتم اسمه؟

- وهل اهتمَّ به أحد؟

- وعن الإغاثة والإعانة بأشكالها المختلفة، هل تمت من جهة ما؟

- وهل شارك فيها أحد منكم؟

- بل، هل سافر أحدنا إلى رقان، بعد أن اكتشفنا حالهم؟

- وهل لا يزال كابوس الرجل الشبح يعود لعليٍّ في أضغاث أحلامه؟

- وهل كُتب شيء ذو بال عن محنتهم؟

- وهل عرِّفت للناس بما يليق بها؟...

وهل... وهل... أسئلة لا حصر لها، غمرت جوَّ المقهى

وقارا، ووضعت كلَّ واحد في نصابه، واكتشف بعضهم في الآخر نخوةً، ومبادرةً، وجميلاً سخا به، ومعروفا صنعه... فحمدوا الله على ذلك... واستصغروا ما قدَّموا في مقابل ما يطالبهم به ضميرهم الحيُّ، وفي مواجهة ما يعذِّبهم به وعيُهم اليقظ... وتمنَّوا، ورَجَوا، وحلُموا... أن لو كانوا أكثر كفاءة، وأكثر فاعلية، وأكثر حضورا في مهمات بلدهم... بل والعالم أجمع... لكن...».

لكنَّ، ضيق الأفق في الوعاء الحضاريِّ بعامَّة؛ وقصر النظر؛ والفتن الهامشية التي تفعل في المجتمع فعل القنبلة النووية، بل أكثر؛ والسفاسف التي أشغِل الناس فيها ولا يزالون؛ والإصرار على أن يولد الواحدُ وهو مرهون بشتى التبعات: عليه دينٌ من انتماء، ودينٌ من حماقات لحقته عبر التاريخ، ودينٌ آخر من سخافات لا تزال تلاحقه... كلُّ ذلك كان سببًا في الجهل بالتاريخ المشترك، والغفلة عن المصير المشترك، وبالتالي العجز عن العمل في الحاضر المشترك، بفعالية، ووعي، وعلوِّ همَّة... إلاَّ من قرَّر أن يكون مختلفا، ورفع الرأس عوض الضحضاح عاليًا...

****

قال وليد:

- «**لقد ذابت أجساد شهدائنا في رقـان وتبخَّرت، وكان غرض**

المستعمِر أن تتبخَّر ضمائرنا، وأن يذوب وجودُنا؛ وأن نكون تبعًا له وعالة عليه، أي نكون كما وصف كلام الله تعالى العبد الذليل المهينَ: «أبكمُ، لا يقدرُ على شيءٍ، وهو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجِّهه لا يأتي بخير».

أجاب محند:

- الحقُّ أني أصبحتُ لا أولي اهتماما كبيرا بما أراده الآخَر، مستعمِرا كان أو غيره، ولكن الذي يعنيني هو «ما نريده نحن»، الذي يعذِّبني هو «حقيقة إرادتنا ووعينا ورشدنا نحن»، ومن ثم صارت «ذاتنا نحن» هي نقطة ارتكازي، في فكري وفي حركيتي؛ ولعلي بذلك تأثرت ببعض المفكرين... ومن ثم أطرح السؤال على أحبتي، وهو سؤال بدئ به كتاب جديد طالعته هذه الأيام:

فسرد السؤال، كأنه يقرأه من ورقة:

- «ما الذي يفسِّر حالة السكون التي يكون عليها فردٌ ما، أو مجتمع ما، في نقطة زمنية محدَّدة، ضمن رقعة جغرافية معيَّنة؟».

ثم واصل سؤاله، والكلُّ يضع مكان الفرد ذاته، ومكان المجتمع بلده الجزائر... واصل السؤال، وقال:

- «وما الذي يفسِّر الحالة النقيض لفرد آخر، أو مجتمع آخر، حين تدِبُّ في أوصاله الحرارة، ويقفز إلى حال الحركة؛ ثم يشغل الزمان والمكان أثرا وفعلا؟».

****

تدخَّل عليٌّ بجرأة معهودة عنده، وقال:

- «الحقُّ، وأني حين أفكِّر في الذي أقدِّمه من خدمة لـرقـــان، ولوطني، ولأمتي... أستذكر بعض مراحل حياتي، وبخاصة ما كان فيها من ضعف، ومن نقص، ومن انحراف... وأحاول جاهدا تفاديها وتجاوزها، وأجد في ذلك صعوبة، بل واستحالة أحيانا... لكني، لا أستسلم ولا أتوقف عن المسير... وأنا في ذلك، دوما أستند إلى قوله تعالى: «ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت، فقد وقع أجره على الله»...

وأقول:

- «ما دام الأجر يقع على الله، حقَّقتُ الهدف أم لم أحقق، وصلتُ أم لم أصل، حييت أم متُّ... فلا أبالي في أيِّ جَنبٍ كان مَصرعي... ثم إني أرجو من الله تعالى أمرين: النصر، أو الشهادة... وهما كلاهما حسنيين...».

بادر محند السؤال، مستعجلا:

- «وهل الانتقام لرقـان يكون بالقتل، وبالجهاد المسلَّح المشوَّه، وبالتفجيرات الطائشة، وبترهيب الناس كافة عبر العالم؟».

وقبل أن يسمـع الجواب، قال:

- «طبعا، أنا أعرف أنَّ صناعة الموت ليست آلة قرآنية، ولا هي صبغة إسلامية؛ وهي مركَّب من تخطيط عالميٍّ، ومن سذاجة في بعض الشباب المنسوب إلى الإسلام، وهي مع ذلك تراكمٌ

لانتكاسات وانهزامات متوالية... الإرهاب صناعة بأتم معنى الكلمة... لكن، ماذا عن صناعة الحياة؟ وعن تغيير ما بالأمة من حال إلى حال؟ وعن معالجة أكثر الملفات تعقيدا، من مثل التربية، والاقتصاد، والإعلام... وغيرها؟ ماذا عن ذلك، ألسنا عاجزين، فاقدين للمشروع، وللمخطط، وللإرادة، وللوجهة، وللريادة؟».

وليد، وقد أدمَن على مطالعة المصادر الفكرية، وهو محترق القلب، حاضر البديهة:

- «أنا أذكر أنَّ مراد هوفمان، العالم الألماني المسلم، السفير السابق في الجزائر، صاحِب العديد من الكتب الهامة جدا، بخاصة منها مذكراته، وكتاب «الإسلام كبديل»... أنا أذكر أني قرأت رأيه في الإجابة عن سؤال تخلفِ المسلمين، فأحاله إلى «صِدقية الذات المسلمة مع نفسها»، وقال:

- «إنها مسألة التحام وإيمانٍ كليٍّ بالإسلام، فإن بلغ المسلم تلك اللحظة الإيمانية التي يمكنه أن يتنازل فيها عن كلِّ شيء، ويضحِّي بكلِّ ما لديه لتُواصِل الفكرة الإسلامية طريقها، في حقول التربية، والحضور المدني والاجتماعي... في تلك اللحظة فقط يحسن إسلامه ويكتمل»... طبعا، وفي تلك اللحظة فعلاً يكون خلافَ الرجل الكَلِّ، أي يكون رجلا سيدا، بوصف القرآن الكريم «يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم».

****

طال الحوار، وكاد الثلاثة ينسون أنهم في مقهى وليسوا في مدرجات الجامعة، حتى جاء النادل ونبههم أنَّ وقت إغلاق المقهى سيكون بعد نصف ساعة... فاعتذروا له، وجمَّعوا بعضا من أغراضهم...

ولكن، قبل الانصراف، واتت عليًّا فكرةٌ، وهو الحريص دوما أن يصل فكره بفعله، ويلحق رأيه بمبادرةٍ ولو صغيرة، على أن يسبح طويلا في مجرد الكلام...

عرض عليٌّ على صديقيه الفكرة، وهي أن يكتبوا رسالة بها سؤالٌ واضح صريح، صادق مباشر، إلى جملة من العلماء الذين يعرفونهم، والذين سمعوا عنهم، أو التقوا بهم، يسألونهم فيها عن «صيغة الانتقام لرڤان وغيرها»، لا بالمفهوم الحقود الكؤود للانتقام، ولكن بالمعنى الحضاريِّ الفكريِّ العمليِّ...

أي، كيف يمكن أن نجعل من «رڤان» نقطة انعطاف في مصيرنا، كما كانت يومًا ما نقطة انعطاف في حياة كلِّ واحد منَّا، نحن الثلاثة؟

تدخل وليد، وقال:

- وهل في الإمكان أن نوسِّع من دائرة السؤال، ونشرك فيه القراء من كلِّ شريحة، ومن كلّ مستوى؛ ذلك أنَّ الحضارة لا يصنعها العلماء لوحدهم، وإنما هي نتاج تراكم لكلِّ الطاقات... فهل يمكن ذلك في رأيكم؟».

قال محند، وعيناه تلمعان بريقا ينم عن رضًا، وعن أملٍ في تحقيق المراد، وبلوغ المرجوِّ... قال:

- «طبعا يمكن، فلا مستحيل في قاموس من له إرادة، ولا ممكن في قاموس من يفتقر إلى الإرادة... فقط، علينا أن نوجد الطريقة، والوسيلة... لا غير... ولذا، فقد قفزت فكرةٌ شاردةٌ إلى عقلي، لعلَّ الواحد منَّا يسخَّر لها... وإني أرى أنَّ عليًّا هو المرشَّح لها، لما له من قدم في التأليف والكتابة، ومن خيال واسع جموح أحيانا...».

عليٌّ، وهو يرفض المدح ويأباه:

- «استعجِل يا وليد بفكرتك، وانس عليًّا، فهو من هو ضعفا، وعجزا... واحذر أن ينالك وزر المداحين يا صديقي...».

يضحك الجميع، ويواصل وليد فكرته، كأنه لم يسمع شيئا:

- «ليس أحسن من رواية تعالج محنة «رقـان»، وتذكر الأجيال بها؛ لتكون مقدِّمة لمعالجة محنة أعمق منها، وهي مشكلة «الضمير، والوعي، والمعنى، والتغيير، وحال الأمة ومصيرها...»، أي المشكلة الحضارية، التي لا نهاية لها ولا حدَّ، والتي تنخر في قلب الأمَّة جميعها، مشرقا ومغربا، ولا تغادر منها أحدا...».

محند، يسأل:

- «وما علاقة ذلك بسؤال العلماء والناس؟ وهل له دور في تحريك الفكر والفعل لديهم؟ فإني أخاف أن يكون مجرد ترف فكريٍّ لا

غير، ولا يتعدَّى حِبر القلم، ولا نغمة الصوت... ولا يصل عتبة الفعل المسؤول، والعمل المثمر المقبول؟».

قال وليد:

- **«إذا صحَّ الفهم حسُن العمل، وإذا استيقظ الوعي تحركت الجوارح، وإذا تعمَّق المعنى نشطت الأعضاء، وإذا تجمَّعت الجهود على صعيد واحد بدأت الحضارة تخطو أولى خطواتها على خط الزمن... ولذا، فإننا - بعد إذنكم - نوكل إلى عليٍّ تأليف هذه الرواية، على أن يرسلها لنا... ثم يتم التداول فيما بيننا... ونشفعها أخيرا بسؤال للعلماء ولغيرهم... فليس غرضنا المتعة الفكرية، ولا الأدب المجرد، ولكننا نرمي إلى فعل حضاري واع»...**

******

بعد تلكؤ، وبعد تردُّد، تقبَّل عليٌّ الفكرة... وتواعدوا للتلاقي عبر وسائل الاتصال، ثم بكتابة رسالة يشفعون بها روايتهم لو تمت... ولكن، مرَّ على الفكرة والمقترح عامان، بل أزيد؛ ولم تنشط قريحة عليٍّ للكتابة في هذا الشأن، كأنَّ الفكرة كانت تختمر في «نون» قلبه، إلى أن تحرَّك «قلم» المعنى عنده، فـ«سطر» رواية واختار لها عنوانا: «اليربوع الأزرق»...

وتم اللقاء، وتمت القراءة الجماعية، وانتهوا إلى الصيغة المرجوة المرتضاة... مدركين أنها ليست أبلـغ صيغة، ولا هي

أمثلُ إبداع... فالأبلـغ والأمثل من اختصاص الحالمين، أمَّا العاملين فهم أبدا في تحسُّن، وهم دوما في نماء...

****

على صفحة الجوِّ الصافية، وفوق عنان السماء، كان هنالك سربٌ من الطير يشكِّل رسومًا بتحليقه، ويبدع صورًا بحركاته، ويكتب سطرا على لوحة الوجود لا تنمحي... عنوانها أن «الواحد غفل، والجمـع حفل».

كتابك
Kitabook

كتابك
Kitabook

... الفصل المائة

من صناعة الموت إلى صناعة الحياة

«ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه:

فقالوا: سلاما ،

قال: إنا منكم وجِلون.

قالوا: لا تَوْجل ، إنَّا نبشِّرك بغلام عليم.

قال: أبشَّرتموني على أن مسَّني الكِبر ، فبمَ تبشرون؟

قالوا بشَّرناك بالحقِّ ، فلا تكن من القانطين.

قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلاَّ الضالُّون»

سورة الحجر

كتاب Kitabook

كتابك
Kitabook

سربٌ من الطير جذلان نشوان... من كلِّ نوع وشكل ولونٍ، يزيّن جوَّ السماء بحركاته الخفيفة الرشيقة، ويرسم لوحة بديعة تلو لوحةٍ، فيبهر العيون ويسمِّرها... عيون الناس من هنالك... من شرفات العمارات، ومن أرصفة الطرقات، ومن متن القطارات «البرقية» والسيارات «الذكية»... الجميعُ مشدودٌ إلى السماء، مرفوعُ الرأس، عالي الهامَة، واسع الأفق... قد نسي التراب، وغادر الوحل، واستهان بالسفاسف، وارتفع عن المعارك الحقيرة الصغيرة... ثم بنى له مجدا مجيدا، ومكانا مكينا...

****

فوق بنايةٍ لا تشبه بتاتا «مسامير النجَّار» مما سماه السابقون «ناطحات السحاب»، ولا تشبه في شيء «علب الورق المقوَّى» مما كان القدامى يتباهون به ويتعالون... وإنما هي بنايةٌ تستلهم هندستها من نباتٍ له في ذاكرة المجتمع حظٌّ وافر... إنها «وردة النرجس» الساحرة...

ولقد اختار المهندس «حامد وفريقُه» هذا الشكل، ونسجوا على منواله، فبنوا على شاكلته هذه التحفة العالمية، فجاءت مثيلا لها قلبا وقالبا، مادة وشكلا، ريحا وروحا... والناس اليومَ يزورونها من القارات السبع، فمن حُرم من العالَمين جمالها وجلالها حرم الكثير...

وسبب اختيار نبات «النرجس» أنه أصيل الاسم، أصيل

المنبت؛ ذلك أنَّ البحر المتوسط هو الموطن الأشهر والأوَّل له، وقد نقله المستعمرون في القرون الخالية إلى أوروبا وأمريكا... وفتنوا به، حتى كاد الناس ينسون منبته، وينسبونه إلى غير محتده...

في مدخل المبنى البديع لافتة تعرِّف بوردة النرجس، وبالمعاني التي يحسن أن يستذكرها الزوار، منها «أنها نبتة تستطيع أن تدافع عن نفسها، وتقضي على أعدائها... وهي تستطيع إماتة كلِّ نبات يحاول أن ينمو في حوضها».

والبنايةُ صفراء مائلةٌ إلى حمرة خفيفة، يحيط بها ما يشبه أوراق الزعفران «تلتوي أطرافها، وتعود إلى محاذاة الأرض» مستلهمة معنى السجود لله، والتواضع لعباد الله...

وقد كتبت بخطٍّ فنيٍّ جميل أبياتُ شعر، لشعراء عربٍ أقحاح، في الوصف وفي الغزل، تخِذت النرجس مادتها، والمحبوبة معناها ومغناها...

ومن عجيب هذه البناية أنها مصنوعة من مواد «طبيعية» لها خاصية النموِّ؛ رغم كونها شاهقة، فهي تعلو بضع مئات من المترات؛ وهي تمتدُّ طولا إلى ثلاث كيلومترات، وعرضا نحو الكيلومتر ونصف...

****

أمَّا داخلها فيحكي آيةً من آي الصَّنعة في تاريخ البشرية،

وهي تضاهي أشهر البنايات عبر العصور، بل تفوقها جمالا وهندسة، ونفعًا وفلسفةً...

داخل المبنى الكثير من الأجنحة «التعليمية»، و«الجامعية»، و«الخدماتية»، و«الإدارية»، و«التجارية»... ومكتبة هي الأكبر والأغنى في العالم، تحوي أرففُها الملايينَ من العناوين، من بينها رواية صغيرة، باللغة العربية، وترجمات لها بلغات مختلفة؛ بخاصة الآسيوية منها والإفريقية، هي هذه التي بين يدي القارئ اليومَ...

أبدع ما يحوي هذا الفضاء الرحبُ مراكز للبحث العلميِّ الجماعيِّ، متجاوزًا كلَّ الجزر المعرفية والتخصُّصات المغلقة، إلى رحابة «عالم الإنسان والمجتمع والكون»، رافضا الفصل بين «عالم الغيب وعالم الشهادة»، مؤسِّسا للمعرفة لا على أساس وضعيٍّ، ولكن على أساس «المنهج القرآني الكوني».

******

من بين المراكز البارزة «مركز الفهم والوعي»، «مركز العلم والعمل»، «مركز علوم القرآن العملية»، «مركز الطاقات ما بعد الذرية»، «مركز الفن والجمال»، «مركز بذور الرشد»، «مركز الصور الإدراكية»، «مركز علم الإنسان»، «مركز الصلة بالله»، «مركز نقاء البيئة»...

ولقد دأب مركز «الفهم والوعي» - مثلًا - بعلمائه البالغ عددهم 323 عالما، على إعادة صياغة المفاهيم الجوهرية،

ومراجعة الواقع بناءً عليها؛ فمثلا مفهوم «الحرية» لم يعد ذلك المفهوم الفجُّ الذي يعني التحرُّر من القيم، والتفسُّخ من الأخلاق... وإنما هو مفهومٌ كونيٌّ مستمَدٌّ من «القرآن الكريم»، ضاربٌ جذوره في التراث البشريِّ من مختلف الثقافات، منسجمٌ مع مقاصد الشرع الحنيف... وقد صار هذا المفهوم سائدًا، بفعل التحول في موازين السلطة المعرفية، في المؤسَّسات العالمية، وهو الأقوى في الموسوعات، والجامعات، ومحاضن الثقافة...

وكذلك جميع المفاهيم التي شوِّهت عبر التاريخ، يعمَل بجدٍّ على تصحيحها، وقد أنجز الكثير منها في هذا المركز الفذِّ، وبقي الكثير... مع مفاهيم جديدة، هي من توليد المركز ونحته...

ومركز «السِّلم والآخَر» يقلب جميع النظريات في العلاقات الدولية، فهو يرفض نظريات الجدل، والصراع، والهيمنة، والعرقية، والمحورية... ويطرح بديلا عنها نظرية «لتعارفوا»، ونظرية «عيال الله»... ونظريات أخرى ترفض التفريق والتمييز، وتحيل مكانه معاني التناغم والتوافق والتراحم... رغم وجود جهات من داخل نسيج الأمَّة، ومن خارجها، ترمي جانبا هذا الاتجاه، وتتبنى نقيضه؛ غير أنها لا ترقى معرفيا وتنظيميا وتأثيرا إلى مستوى هذا الاتجاه الكوني الإنساني الجديد...

****

سجِّل قبل سنوات اختراع كان نقطة تحوُّل في نماذج الفيزياء، باسم عالم من علماء هذا البلد، لعلَّ نباتات الصحراء، وحيوانات الصحراء، وحشرات الصحراء، ومياه الصحراء، وتراب الصحراء... لعلها باتت تعرف هذا العالم وتشهد له بالفضل، بله إنسان الصحراء، بل إنسان العالم أجمع... أي أكثر من إحدى عشر مليار إنسان يقرون له بالسبق والريادة...

الاختراع يتمثل في «إبطال مفعول الإشعاع النووي من المواد المتضررة بسبب القنابل النووية، من مثل التربة، والحديد، والمياه... والتي كانت مشعة وضارة، وكان يُعتقد أنَّها لن تزول لآلاف السنين... أما اليومَ، فبالمعالجة بطرق مبتكرة وجدت عافيتها، وصارت غير مؤيَّنة ولا ضارة»...

ولا يزال العلماء من الصين، والهند، ونيجيريا، والبرازيل، وأستراليا... ومن دول أخرى كثيرة؛ لا يزالون يتوافدون إلى الوطن، ويتدربون على تقنيات هذا الاختراع، ويتكونون في آلياته المخبرية والفنية والطبية والعلاجية...

****

حطَّ طائر السنونو المشبَع زرقة في ظهره، وحمرة كحمرة المسك على قبَّعة رأسه، وبياضا ثلجيا في بطنه... حطَّ على قبرٍ، كتب عليه «شهيد المعنى... عليٌّ... رحمه الله... توفي عام...».

وضع الطائر جناحا على جناح، كأنه يلهج بالضراعة إلى السماء، فسأل العليم الحكيم، العزيز الحليم:

«أن يرحم من آمن يوما بالإمكان، وعمل على تغيير الواقع، وكابد وجاهد واجتهد... حتى تغير ما بالأمَّة من حال إلى حال، من ذلة إلى عزة، من ضعف إلى قوة، من تبعية إلى ذاتية...».

دعا الطائر الله الكريم:

«أن يغفر لمن فقد الأمل في معية الله، وقنط من رحمة الله، وأيس من رَوح الله... فمات ولم يحرِّك نقطة التحول والتغير، ولم يسهم في بناء نقطة الانعطاف... دعا الله أن يغفر له ذنبه الحضاريَّ... وأن يقلل من أمثاله في الأمة والمجتمع إلى يوم الدين».

وعلى شاهد القبر، إلى جوار الطائر الغرِّيد، آيةٌ قرآنية معبرة، لعلَّ الناس لم يألفوا في القديم على أن يستشهدوا بها في مقامات «الموت»... إلَّا أنَّ الآية بديعة ودالَّةٌ لو قرئت بروح الوقت و«العصر»، ولو فهمت وعمل بها بمنهج الاعتصار و«العصر»...:

«من كان يريد العزة، فلله العزة جميعا.

إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه».

الملحق 01

رسالة حول واقع الأمة

ها هي ذي الرسالة تلحق الرواية، للقارئ فرصة ليجيب، ثم في طبعات أخرى بحول الله ينشر، أو بصيغ أخرى ينشر... وليس المطلوب هو الإطناب، ولكن الاختصار، والفاعلية، والفعالية... ثم الانتهاء إلى أثر، وحركة، وحركية... لا تتوقف، ولا تتعب...

هو إذن سفر أبدي، من الفكر إلى الفعل، من العلم إلى العمل... وكلُّ سفر يستوجب النية... فاللهم نوينا وقصدنا... وعلى الله قصد السبيل...

****

نص الرسالة

أنا شاب مسلمٌ جزائريٌّ، عشتُ محنة «رقان» بقلبي وعقلي، وعواطفي ووجداني؛ آلمتني كثيرا، وأشدُّ ما آلمني فيها «جهلي بها»، بل وجهلي بالكثير من معالم التاريخ في وطني؛ غير أني لا أريد أن أكون سجينَ الحدث واصفا باكيًّا شاكيا؛ بل أتجاوزه إلى السؤال عمَّا يجب أن أفعله، وعمَّا لا يجوز لي أن أدعه.

هذه الرسالة لا تبحث عن أسباب التخلف التي تخلد

بي -وبالمسلمين- إلى الأرض، ولقد تتبعناها في المصادر واقتنعنا بها؛ وإنما تبحث عن:

كيف نحوِّل تلك الأسباب إلى محرِّك لوجداننا، وعقولنا، وسلوكنا؟

وكيف نتجاوز في حركيتنا مستوى «الفرد» إلى مستوى «الجماعة» و«العقل الجمعي»، و«الوعي الجمعي»، و«المتحد العلمي»، و«الحركة المعتصمة بالله، العاملة سويا مع تقبل الاختلاف، المعتبرة للمنطلقات وللمصير، بلا اختزال؟

باختصار:

كيف ننتقم لرقان، وللجزائر، انتقاما حضاريا، علميا، عمليا... حتى نخرج بعد أمد ببلدنا، من حال التخلف إلى حال الحضارة، من حال الضعف إلى حال القوة، من حال الانهزام إلى حال الانتصار؟

هل يمكن ذلك؟

الجواب هو: نعم... ولا حاجة إلى تضييع الوقت في إعادة اكتشاف البارود.

****

أمَّا صلب السؤال فهو:

كيف يمكن ذلك؟ وما هي المراحل؟ والمناهج؟ والآليات؟

والسبل؟ والطرق؟ والبرامج؟ والخطوات؟ ومصاعب الطريق؟ والمحفزات؟ وأمثلة التنفيذ والتنزيل؟

لا أحد يُستغنى عن رأيه، إلَّا من استغنى هو عن مهمَّته في الحياة؛ ولا أحد يُنتقص من قدره، إلاَّ مَن حشر نفسه مع الرعاع وسقْط المتاع؛ ولا أحد من أهلينا يُستهم عليه ويلقى في البحر، ذلك أنَّ السفينة تأوينا، وتكفينا، وتحوينا... وتصل بنا، بحول الله، إلى برِّ الأمان.

وليد، محند، علي

كتابك Kitabook

الملحق 02

وليد القنبلة الذرية

قصيدة لمفدي زكريا، كتاب اللهب المقدس، باعتبارها جوابا مستبقا على السؤال

بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية بصحراء الجزائر، صبيحة يوم السبت 13 فيفري (شباط) 1960.

ما دهاه؟ ويل أمِّـــه.. ما دهـــاه؟؟ ... ويلتـــاه، مـن جـيـلـه ويـلتـــاه!!
مـــالـه في الحـيـاة، يـولـد أعـمـى؟ ... لم تـر الكـــون، بـاسمـا مـقـلـتـــاه؟
مـــالـــه مقـعـدا، يـدحـرج رجـلـيـ ... ـــه؟ وماذا جنى، فشُلَّت يـــــداه؟
مـــالـــه، لم تـــزل تهـدهـــده الأ ... م، ولم تـستـمـع لهـا، أذنـــــاه؟
مـالـه أخـرسـا، تـنـاجـيـه في المهـ ... ـد، ولم تبتســـم لهـا، شفتـــاه
ولمـاذا لم يـبـك، بـيـن ذراعـيـــ ... ـــها دلالا ... ولم يقـــل: أمـــاه؟
ألهـذا الـوجـود، جـاء وحـيـدا؟ ... أم لـــه في زمـــانـه أشبـــاه؟
ويـــلتـاه مـن جـيـلـه ويـلتـاه!

****

قذفـتـه إلى الحـيـاة، يـد المـــو ... ت، فلم يقض في الحيـــاة ربيـــعا
وسـقـتـه الـسـمـوم، في عالم الغيـ ... ـب، فرنسا ... فجـاء شكلا مريعـــا
ابـن إفريقيـا الشـهيـــد، وقـد خـــ ... ـر على مذبح الطغـــاة صريـعا
تخذت منـه (للتـجـارب) قـربـــا ... نـا، فـرنـسـا، فحطمتـــه رضيـــعا
شوهـت خـلـقـه، جريمتها الكبـ ... ـرى: وجـرتـــه للخراب سريـــعا
لـيـتـه ظل في الـفـضـــا بخـارا!! ... لـيـتـه دام كـالـشـعـاع، رفيـــعا!

لـيـتـــه ظل في السـما منيعا

****

شبـح كـالخـيـال، لم يـك بـالحـــ ـي، فيرجى... ولم يمـــت فيـــوارى
عـاش حـيـــران، في عـذاب وبـؤس بيـــن قـوم، معـذبـــين حـيـــارى
ظـل يـسـعـى، إلى الـفَـنـاء رويـدا بـائـســا، لا يـغـــالـب الأقـدارا
طـحن الداءُ جسمه، وأحال الســـ ـقـم ذراتـــه هـبـاء، فـطـــارا
نـبـتت مـن حـطـامه، لـعـنـات كـالـصواريـخ، نـقـمـــة وانفـجارا
نـازلات، عـلى طـغـاة فـرنـسا لم تـزل كالجـحيـــم، تقذف نـــارا
لـقـنـتـها عـواقـب البـغي، سـرا بـث فـيها عـــدل السماء، قـــرارا
حـــملـتـها العـصور، خـزيا وعـارا

****

شـعبُ إفـريـقـيا، أحـاط بـه المكـ ـر فـأمســى للمجرمين، ضـــحية
ورمـتـه عـبـر القـرون، فـرنـسا طـعـمة للـقـنابـــل الـــذريـــة
وسـرى المـوت فـيـه، جيلا فجيلا يـــوم هـزت شعـوبـــه الحيـوية
شعـبَ إفـريـقـيا، ستـنـصفك الـ ـدنيا، وتصغي لك الشعوب الأبـــية
وسيحكـي هـذا الزمـان، ويـروي للـبرايـــا، فـظـائـع، الـمدنيـــة
فـخـذ الثـأر مـن فرنســـا، وخلد في الضحايا تلك النفوس الزكـــــية
وانفجـر صارخا ... وقل: يا فرنســا أنتِ في الأرض، هفـــوة أزليـــــة!
يا فرنســـــــا .. يا لعنـة البشريـة

ملحق 03

خطبة الهندي الأحمر الأخيرة، تبحث عن عربي يقرأها هذه الأيام

زعيم واشنطن الكبير" يقول لي، في رسالته، أنه يريد أن يشتري بلادنا. ويقول لي أنه صديقي، وأنه يكن لي مودة عميقة.

ما ألطف زعيم واشنطن الكبير، ولا سيما أنه في غنى عني وعن صداقتي!

لكننا سننظر في ما يعرضه زعيم واشنطن الكبير، فنحن نعرف أننا إذا لم نبعه بلادنا فسوف يجئنا الرجل الأبيض مدججا بسلاحه وينتزعها.

كيف نستطيع أن نبيع أو نشتري السماء ودفء الأرض؟

ما أغرب هذه الأفكار!!!

كيف نبيع طلاقة الهواء؟ كيف نبيع حباب الماء ونحن لا نملكها ؟

كل شبر من تراب هذه البلاد مقدس عند شعبي. كل خيط من ورق الصنوبر، كل شاطئ رملي، كل مدى من الضباب في غياهب الإحراج، كل حشرة تمتص ما تمتص أو تطنّ؛ كله

مقدس في ذاكرة شعبي وتجربته مع الحياة.

النسغ الذي يسيل في الأشجار يجري بذكريات الإنسان الأحمر. موتى الإنسان الأبيض ينسون مهدهم عندما يمشون بين النجوم. أما موتانا فأبداً لا ينسون الأرض الطيبة لأنها أم الإنسان الأحمر. نحن منها، وهي منا.

الأزهار العاطرة أخواتنا. الغزال والحصان والنسر العظيم كلهم إخوتنا. القمم الصخرية. ندى المروج. ودفء جسد الحصان، كلهم من هذه، الأسرة الواحدة. إذن فحين يقول زعيم واشنطن الكبير أنه يريد أن يشتري بلادنا، إنما يسألنا ما لا يطاق.

زعيم واشنطن الكبير، يقول في رسالته أنه يريد أن يشتري بلادنا، وأنه سيهبنا مطرحًا يلمّنا، نعيش فيه سعداء وأنه سيكون لنا أبا وأننا سنكون أبناء له، لذا سننظر في ما يعرضه زعيم واشنطن الكبير حول شراء بلدنا، علما بأنه عرض لا يطاق، لأن أرضنا مقدسة.

هذه المياه التي تشع وهي تجري في السواقي والأنهار ليست مياها، أنها دماء أجدادنا. وإذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر أنها مقدسة. وقل لأبنائك أنها مقدسة. كل طيف يتراءى في صفاء مياه البحيرات ينبئك عن ذكريات شعبنا وتاريخه. وما تهمس به المياه هو صوت جدي. هذه الأنهار إخوتنا. أنها تطفئ ظمأنا، وتحمل مراكبنا، وتطعم أطفالنا. وإذا قررنا أن

نبيعك بلادنا فاذكر وعلّم أبناءك أن هذه الأنهار إخوتنا وعليك أن تحبها كما تحب من ولدته أمك.

ينهزم الإنسان الأحمر أمام زحف الإنسان الأبيض مثلما ينقشع ضباب الجبال أمام شمس الصباح. لكننا نرى رماد آبائنا مقدساً، وقبورهم بقيعا مقدسًا. وهكذا نرى الهضاب والأشجار. ونعتبر هذه البلاد قسمتنا. ونعرف أن الرجل الأبيض لا يفهمنا. تستوي هذه الأرض عنده والأرض المجاورة. لأنه الغريب الذي تسلل في ظلمات الليل فنال من هذه الأرض كل ما تمنى. إنه لا يرى الأرض أختًا له بل عدوا يقهره ثم يمضي. ها هو يهجر قبر أبيه ولا يعبأ، ويتركه وراء ظهره ولا يعبأ. إنه يسرق الأرض من أبنائها ولا يعبأ. هذه قبور آبائه ومهاد أبنائه منسية. وها هو ينظر إلى أمه السماء فلا يراها إلّا سلعة تسرق أو تباع كالأغنام والخرز. أن جشعه يلتهم الأرض فلا يغادرها ألا صحراء ....

"لا يترك هذا الرجل الأبيض حيث يحل ويرحل شبرا من أرض دون ضجيج. لم يبقى لديه مكان لسماع حفيف الأوراق وتفتحها في الربيع، أو لسماع طنين أجنحة الحشرات. ولكن لربما أنني متوحش، لا افهم أن الضوضاء تصم الأذنين. وما يتبقى للحياة حين يعجز الإنسان عن سماع صرخة طائر السبد، أو يصغي في أعماق الليل لنقاش الضفادع حول البركة. لكن لربما أنني إنسان احمر، لا افهم.

"الهنود يفضلون صوت الريح العذب وهي ترمح فوق بركة المياه، ورائحة الريح المعشقة بمطر الظهيرة أو المعطرة برائحة الصنوبر.

"الهواء عند الإنسان الأحمر ثمين، فكل ما على الأرض يتنفس منه. الحيوانات والأشجار والبشر كلهم يتنفسون من نفس واحد أما الإنسان الأبيض فيبدو أنه لا يعرف أنه يتنفس، وكأنه رجل مات منذ أيام. كل ما فيه بليد حتى النتانة. ولكن إذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر أن الهواء ثمين عندنا، وأن روح الهواء تتغلغل في كل من يتنفس منه. أن الريح التي وهبت جدنا الأكبر أول شهيق هي التي استردت منه زفيره الأخير. أن على هذه الريح أن تمنح أبنائنا روح الحياة. فإذا بعناك بلادنا فاجعلها حراماً، وقدّسها كأنها مقام يحج إليه الرجل الأبيض ويتذوق فيه الريح المحلاّة بأزهار المروج.

وإذن، فسننظر في عرض شرائك بلادنا، وسيكون لنا شرط واحد إذا قبلنا ببيعها: أن يعامل الرجل الأبيض حيوانات الأرض كما يعامل أخواته.

لربما أنني متوحش ولا أفهم. لكني شاهدت ألف جاموس منتن في البراري قتلها الرجل الأبيض من قطار عابر. لعلّي متوحش ولا أفهم كيف أن هذا الحصان الحديدي المدخن أعظم في عينيه من الجاموس الذي لا نقتلها إلّا لكي نبقى على قيد الحياة.

ما الإنسان بدون هذه الحيوانات؟ إذا انقرضت فسوف يموت من توحش روحه. ما يصيب الحيوانات سرعان ما يصيب البشر. فكل الأشياء متمارجة.

لابد أن تعلّم أبنائك أن أديم الأرض تحت أقدامهم من رفات أجدادنا. بذلك يحترمون الأرض. علمهم ما علمنا أولادنا أن هذه الأرض أمنا، وان المكروه الذي يصيبها سوف يصيب أبناء الأرض. إذا بصق إنسان على الأرض فإنما يبصق على نفسه.

هذا ما نعلّم، أن الأرض لا تعود إلى إنسان، بل هو الإنسان يعود إلى الأرض. هذا ما نعلّم: كل الأشياء متمارجة كما الدم الذي يوحد العائلة. كل الأشياء متمارجة. ما يصيب الأرض سوف يصيب أبناء الأرض. الإنسان لا ينسج عنكبوت الحياة بل هو خيط في هذا النسيج. وما يفعله للنسيج يفعله بنفسه.

لكننا سننظر في عرضك أن نذهب إلى المطرح المخصص لشعبي لنعيش وحدنا بسلام. لم يعد يهم أين نمضي بقية حياتنا. إنها أيام معدودة، بضع ساعات إضافية، بعض شتاءات... ثم لن يكون هناك أطفال من هذه الشعوب العظيمة التي عاشت يوما على هذه الأرض، وها هي ذي شراذم ضئيلة تتسكع في أعماق الأدغال. لن يكون هناك أطفال يبكون على قبور بشر كانوا ذات يوم مثلكم أقوياء طافحين بالآمال. ولكن لماذا أبكي زوال شعبي؟ إن القبائل لا يصنعها إلّا الرجال. أما

الرجال فيجيئون ويرحلون مثل أمواج البحر. حتى أنت أيها الرجل الأبيض الذي تمشي مع ربك وتحاكيه صديقًا لصديق لن تنجو من هذا المصير. ولعلنا -في النهاية- إخوة وسوف نرى.

أعلم شيئًا واحدًا قد يكتشفه الرجل الأبيض يومًا. أعلم أن إلهي وإلهه واحد. إنكم تعتقدون أنكم تملكون هذا الإله مثلما إنكم تريدون أن تملكوا أرضنا. إنه إله الإنسان وقد وسعت رحمته الإنسان الأحمر والإنسان الأبيض. إن هذه الأرض غالية عنده. وإن إيذاء الأرض لابد أن يثير غضب خالقها. لسوف تمضي أنت أيضا أيها الإنسان الأبيض. وربما ستمضي قبل غيرك. هيا أمعن في تلويث فراشك ولسوف تختنق يوما في قمامتك.

لكنك -ولحكمة لا يعرفها إلا الإله الذي جاء بك إلى هذه البلاد- أعطاك سلطانا على الأرض وعلى الإنسان الأحمر. إن هذا المصير ما يزال لغزاً عندنا.

أين الأيكة؟ ولت.

أين النسر؟ اختفى.

ما معنى أن تقول وداعا للصيد وللحصان الرشيق؟

أنها نهاية الحياة وبداية مغالبة الموت.

وإذن، سننظر في غرضك أن تشتري بلادنا. فلئن رضينا

فلكي نأمن على أنفسنا في ما وعدتنا به من مطرح نعيش فيه. هناك. ربما، سوف نعيش آخر أيامنا. وحين يزول آخر إنسان أحمر فوق الأرض، ولا يبقى منه إلّا ظلال سحابة تعبر البراري ستظل هذه الشطآن والغابات مسكونة بروح شعبي.

وإذن، إذا بعناك أرضنا فأحبها كما يحب الوليد خفقان قلب أمه.

وإذن، إذا بعناك أرضنا فأحبها كما أحببناها، واستوص بها خيرا كما استوصينا. واحتفظ من أرضنا بصورة لها مثلما كانت يوم أخذتها.

وبكل ما أُعطيت من سلطان، وكل ما فيك من عقل وقلب:
استوص بأرضنا وصنها.

أحبها كما يحبنا الله جميعا.

إنني أعلم أن إلهنا إلهكم واحد، وأن هذه الأرض غالية عليه. واعلم أن الرجل الأبيض أيضا لن يفلت من يد المصير. وفي النهاية... لعلنا أخوان وسوف نرى.

ملحق 04

الآثار الناجمة عن الإشعاع النووي على الإنسان والطبيعة

عرض مختصَر

الإشعاع المؤين وغير المؤين:

إشعاع مؤين (Ionizing Radiation): مثل أشعة إكس وأشعة جاما والأشعة الكونية وجسيمات بيتا وألفا. إشعاع غير مؤين (Non-Ionizing Radiation) مثل الإشعاعات الكهرومغناطيسية ومنها موجات الراديو والتليفزيون وموجات الرادار والموجات الحرارية ذات الأطوال الموجية القصيرة (ميكروويف) والموجات دون الحمراء والأشعة فوق البنفسجية والضوء العادي.

الإشعاع المؤين (Ionizing Radiation) يتكون من ثلاثة أنواع رئيسية:

أ- دقائق ألفا Alpha Particles

يمكن إيقاف مسار أشعة ألفا بواسطة قطعة من الورق أو بواسطة جسم الإنسان؛ ولكن لو تم استنشاق أبخرة

المادة التي تشـع منها دقائق ألفا أو بلعُها ودخولها إلى الجسم نتيجة وجود جرح، به فإنها تكون مؤذية جدا.

ب- دقائق بيتا Beta Particles

لا يمكن إيقاف دقائق بيتا بواسطة قطعة الورق ويمكن إيقاف سريان هذه الأشعة بواسطة قطعة من الخشب، وقد تسبب أذى جسيما إذا اخترقت الجسم.

ج- أشعة جاما Gamma Rays

من أخطر أنواع الإشعاعات ولها قوة اختراق عالية جدا ، أكبر بكثير من أشعة ألفا وأشعة بيتا.

النشاط الطبيعي للإشعاع داخل جسم الإنسان:

يشـع جسم الإنسان من الداخل عن طريق كل من الهواء الذي يتنفسه والغذاء والماء الذي يصل إلى جوفه، فالهواء هو المصدر الرئيسي للجرعة الإشعاعية الطبيعية التي تصل إلى داخل جسم الإنسان. كما أنَّ بعض الغبار الذي يتساقط على النبات يحوي آثاراً من تلك المواد المشعَّة، وتصل المواد المشعة إلى داخل جسم الإنسان عن طريق تناوله النباتات أو لحوم الحيوانات التي تتغذى على النباتات، وتدخل المواد المشعة أيضاً مـع الماء الذي نشربه حيث تحتوى المياه

على آثار قليلة جداً منها لذلك تكون أجسامنا مشعة قليلاً من الداخل نظراً لوجود بعض العناصر المشعة فيها مثل (البوتاسيوم - 40) و(الكربون - 14).

الحد الأقصى المأمون للإشعاع:

يجب ألآ يتجاوزه الإنسان ما مقداره (5 ريم) في اليوم الواحد، والريم وحدة قياس الإشعاع الممتص وهى تعادل رونتجن واحد من الأشعة السينية وهى تعنى Roentgen Equivalent Man.

الإشعاع وحياة الإنسان:

عندما يتعرض أي كائن حي إلى الإشعاعات النووية يحدث تأينا للذرات المكونة لجزيئات الجسم البشري؛ مما يؤدى إلى دمار هذه الأنسجة مهددة حياة الإنسان بالخطر.

درجة الخطورة:

تعود إلى عدة عوامل منها نوعُها، وكمِّية الطاقة الناتجة منها، وزمن التعرض...

أنواع الأثر الإشعاعي:

للإشعاعات نوعان من الآثار البيولوجية: الأثر الجسدي ويظهر غالباً على الإنسان حيث يصاب ببعض الأمراض الخطيرة مثل سرطان الجلد والدم. والأثر الثاني للإشعاعات هو الأثر الوراثي، وتظهر آثاره على الأجيال المتعاقبة.

حقول الخطر الإشعاعي:

الفضاء الخارجي، التعامل مع النظائر المشعة سواء في مجالات الطب، أو الصناعة، أو الزراعة؛ وتعرض العاملين في المفاعلات النووية والعاملين في المناجم التي يستخرج منها العناصر المشعة مثل الراديوم واليورانيوم. ومن العوامل الرئيسية المسببة للتلوث النووي ما يحدث في دول النادي النووي من إجراء التجارب سواء داخل أرضها، أو خارجها، وهو الغالب. من مثل تجارب فرنسا في الجزائر.

تأثير الإشعاع على الكائنات الحية:

تدخل الإشعاعات إلى البيئة من مصادر مختلفة، وتؤثر على الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات

وكائنات حية دقيقة، ويعتمد تأثير الإشعاعات على الكائنات الحية على نوعية الكائن الحي، ودرجة الإشعاع، والفترة الزمنية التي يتعرض إليها الكائن الحي؛ و عموماً تتأثر الكائنات الحية بالإشعاعات في مرحلة الطفولة أكثر من تأثرها في المراحل الأخرى، نظرًا لنشاط الخلايا الكبير أثناء مرحلة الطفولة.

ويكون تأثير الإشعاعات الطبيعية أو الصناعية على الكائنات الحية بنفس الطريقة فمن الإشعاعات تخرج إشعاعات جزئيات ذات طاقة عالية (إلكترونات، بروتونات، نويات ذرات الهليوم) بحيث تحدث تغيُّرا في ترتيب الأحماض الأمينية في المادة الوراثية والأنزيمية، ينتج عنها أضرار وراثية تنتقل إلى الأجيال القادمة أو أضرار جسدية تؤثر فقط على الكائن الحي المصاب، وتتراوح الفترة الزمنية ما بين تعرض الكائنات الحية للإشعاعات وحدوث الأضرار من عدة ساعات إلى عشرات السنين.

التأثيرات الإحيائية للإشعاع:

ينشأ تفاعل الأشعة المؤينة مع الجسم البشري عن مصدرين: إمَّا من مصدر خارجيٍ عن الجسم، وإمَّا من تلوث داخلي بالمواد المشعة؛ وكلاهما يقود إلى

تأثيرات إحيائية (بيولوجية) قد تظهر فيما بعد كأعراض مرضية، وتعتمد طبيعة وشدة هذه الأعراض والمدة التي تظهر فيها على مقدار الجرعة المتعرَّض لها، وعلى الفترة الزمنية لهذا التعرض.

تفاعل الإشعاع مع الخلايا:

إن الخلية هي الوحدة البنائية الأساسية في جسم الكائن الحي؛ وبالتالي فإن أثر الإشعاع في جسم الكائن الحي هو نتاج الضرر الذي يصيب الخلايا من الإشعاع، وتتلخص آثار الإشعاع في الخلية من الناحية النظرية إما بموت الخلية، أو تأخير انقسامها، أو زيادة معدل السرعة في انقسامها، أو إحداث الطفرات الجينية، أو تكسر الكروموسومات. علما أن الخلايا تختلف في استجابتها للأثر الإشعاعي، فخلايا العضلات والأعصاب تكون مقاومتها عالية للإشعاع؛ بينما كريات الدم البيضاء تكون حساسة جدا للإشعاع.

الفرق الأساسي بين الإشعاعات النووية وبقية الإشعاعات التي نواجهها اعتيادياً مثل الحرارة والضوء هو أن الإشعاعات النووية لديها الطاقة الكافية لإحداث تأيُّن؛ ففي الماء الذي تتكون منه معظم الخلية يمكن أن يقود التأيُّن إلى تغيرات جزيئية تنبثق عنها فصائل

كيميائية من أنواع مختلفة لمادة الكروموسومات، ويأخذ هذا التلف شكل تغيرات في تركيب ونشاط الخلية، أو يؤدي إلى تعطيل وظائف الخلية، أو إلى إرباك الوظائف؛ وبذلك يؤثر على النظام ككل. ويمكن أن تظهر هذه التغيرات في الجسم البشري كآثار مرضية مثل غثيان الإشعاع، أو إعتام عدسة العين، أو السرطان على المدى البعيد.

مراحل التلف الإشعاعي:

العمليات التي تقود إلى التلف الإشعاعي معقَّدة، وغالبًا ما تتخذ أربع مراحل:

- المرحلة الفيزيائية الابتدائية
- المرحلة الفيزيوكيميائية
- المرحلة الكيميائية
- المرحلة البيولوجية

الموت بالحرارة قبل الإشعاع:

الشخص المتعرض لجرعة عالية من الإشعاع النووي بفعل انفجار القنبلة، يموت بسبب الحرارة الناتجة من التفجير قبل أن يقتل من الإشعاع.

التأثير الإشعاعي وعمر الإنسان:

إنَّ التأثير الإشعاعي في الخلايا والأنسجة الحية وعلى جسم الإنسان بشكل عام يعتمد كثيرا على الخلية ذاتها؛ فالخلايا سريعة الانقسام يكون تأثرها أكثر من الخلايا بطيئة الانقسام، ويعتمد على عمر الشخص المتعرض للإشعاع، وبشكل عام، فكلما كان الشخص المتعرض أكثر شبابا وحيوية كلما كان التأثير أقل.

التأثير المحدود والتأثير الكلي:

عندما تكون الجرعة لجزء محدد من الجسم فإنَّ تأثيرها يكون فقط في ذلك العضو، والمناطق القريبة منه، والجلد الذي يغطِّيه؛ وتبقى بقية أجهزة الجسم تقوم بأداء دورها بشكل فعَّال، مما يساهم في سرعة الشفاء. أمَّا إذا كانت الجرعة لكامل أو لأغلب الجسم فإنَّ تأثيرها يكون في كافَّة الأعضاء؛ مما يسبب قصور الجسم في مواجهة الأمراض الداخلية، أو الأخطار الخارجية.

الخلايا ترمِّم نفسها في الحالة الطبيعية:

إنَّ الجسم يقوم بإعادة بناء مستمرة لخلايا وأنسجته،

سواء في المواضع العادية أو عند الإصابة بمرض أو ما شابه، فإذا أصيب أي جزء من الجسم فإن إعادة البناء أو الترميم في الجسم تتم بشكل فعال وبأسرع ما يمكن، ضمن مقدرة الجسم، سواء أكان هذا المرض بمسبب بيولوجي كالفيروسات والبكتيريا أو بمسبب كيماوي كالسموم والملوثات الكيماوية أو ميكانيكي كالجروح أو إشعاعي. ولولا هذه الخاصية التي أعطاها الخالق العظيم لأجسامنا لمات الواحد منا إذا ما شاكته شوكة، أو أقل من ذلك. ولدى الخلية مقدرة على إصلاح الأضرار البسيطة التي تسببها الجرعات الصغيرة. كما إن هناك بعض الآثار التراكمية التي لا يمكن إصلاحها وتتراكم مع مرور الزمن.

Kitabook

الآثار المبكرة والآثار المتأخرة:

الآثار الإشعاعية على أنسجة وأعضاء جسم الإنسان التي يمكن الإحساس بها أو ملاحظتها تنقسم إلى قسمين: الآثار المبكرة والتي تظهر بعد امتصاص الجرعة الإشعاعية من عدة ساعات إلى عدة أيام، أما ما يظهر بعد ذلك فهو من الآثار المتأخرة، والتي قد يظهر أثرها بعد ما يزيد على عشرين سنة من أخذ الجرعة الإشعاعية.

المعلومات عن آثار القنبلة النووية:

الجدير بالذكر أنَّ المعلومات الحقيقية في هذا المجال قليلة؛ وهي غالبا معلومات بحثية لتجارب أجريت على الحيوانات، ثم يفترض الباحثون أنَّ آثارا مشابهة يمكن أن تصيب الإنسان. أو هي مستمدَّة من ملاحظات بحثية بعد تجريب قنبلة كـ«اليربوع الأزرق»، أو «هيروشيما وناكازاكي».

تأثيرات الإشعاع المبكرة على الإنسان:

إنَّ التأثيرات المبكرة للإشعاع هي تلك التأثيرات التي تحدث بعد عدة ساعات وحتى عدة أسابيع من التعرض الحاد لجرعة كبيرة من الإشعاع لعدة ساعات أو أقل. هذه التأثيرات تشمل الغثيان، الإجهاد، ارتفاع درجة الحرارة، تغيرات دموية، ومنها هبوط أو اجتثاث نخاع العظم؛ تأثيرات معوية مثل تقشر الخلايا المبطنة للأمعاء، والتأثير ربما يكون الموت خلال شهر أو شهرين بعد التعرض الحاد للإشعاع.

تأثيرات الإشعاع المتأخرة على الإنسان:

يتعرض الإنسان لكم هائل من الإشعاع من

الطبيعة ومن المصادر الصناعية. وبخاصة ما كان منها وراثيا، أو داخلا في التشويه الجيني للخلايا.

تأثير الإشعاع على الأجنة البشرية :

يتوقف تأثير الإشعاع على الأجنة البشرية على مرحلة النمو، فإذا تعرضت البويضة الملقحة أثناء الأسابيع الأولى للإشعاع يتم انفصالها عن الرحم، ويحدث الإجهاض؛ وإذا كان عمر الجنين حوالي ثلاثة أشهر فإنه يتعرض لتشوهات جسدية خصوصا في الجهاز العصبي والعيون. أمَّا في الفترات التي تلي الشهور الثلاثة الأولى فإن الجنين يتعرض لِصغر حجم الرأس، وحدوث تخلف عقلي، وتشويه الأيدي والأرجل عند المولود، وخاصة إذا زادت الجرعات من الأشعة عن 25 راد. وتتأثر الأجنة حتى ولو بتركيزات بسيطة من الإشعاعات لذا لا يسمح بأخذ الأشعة للحوامل. حيث الجرعات المسموح بها للأم الحامل أقل بكثير من المسموح بها للأشخاص العاديين .

الغبار الذري والتساقط على الأشجار والمراعي:

عنصر الأسترنسيوم 90 ينتج عن الانفجارات

النووية يوجد في كل مكان تقريبًا، وتتزايد كميته مع الازدياد في إجراء التجارب النووية، وهو يتساقط على الأشجار والمراعي فينتقل إلى الأغنام والماشية، ومنها إلى الإنسان؛ وهو يؤثر في إنتاجية اللبن من الأبقار والمواشي. ويتلف العظام، ويسبب العديد من الأمراض. وخطورة التفجيرات النووية تكمن في الغبار الذري الذي ينبعث من مواقع التفجير الذري حيث يتساقط بفعل الجاذبية الأرضية أو بواسطة الأمطار فيلوث كل شيء ويتلف كل شيء.

التلوث الإشعاعي للغذاء ومخاطره الصحية:

أدى تطور استخدامات التكنولوجيا النووية العسكرية والمدنية، والتزايد المطرد في تطبيقات النظائر المشعة إلى ظهور أمراض خطيرة، مثل الأورام السرطانية وتلف أجهزة المناعة وتشوهات الأجنة والعقم وغيرها من الأمراض التي تنتج عن انتقال الإشعاعات إلى الإنسان بطرق مختلفة، على رأسها الغذاء الملوث بهذه الإشعاعات، في حالات تساقط الغبار الذري على النباتات والتربة الزراعية، أو نتيجة لتلوث الهواء والماء بمخلفات التجارب أو النشاطات النووية أو الذرية، وهو ما يتطلب اهتمام الجهات

المعنية بمعرفة أساليب تقدير العناصر المشعة وقياس النشاط الإشعاعي في الأغذية الصلبة والسائلة، وسبل الحد من تلوث الأغذية بالمواد المشعة.

اختفاء العناصر المشعة من الجوِّ:

وبعض العناصر المشعة، مثل السيزيوم لا تختفي من الجو إلا بعد 300 سنة؛ في حين تختفي مادة أخرى مشعة مثل اليودين في فترة زمنية تقل عن ثلاثة أشهر. وتتراوح مدة نصف الحياة للنظائر المشعة من أجزاء الثانية إلى ملايين السنين.

فترة تساقط المواد المشعة على الأغذية:

تلعب الفترة التي تسقط خلالها المواد المشعة على الأغذية دوراً هاماً في زيادة تأثيرها، ففي حال سقوط المواد المشعة في فترة حصاد المحاصيل فإنَّ ضررها يكون أشدَّ؛ حيث يؤدِّي ذلك إلى ترسُّب المواد المشعة على سطح النباتات، فتمتصها الأوراق أو الجذور فيما بعد، وعندما يكون التلوُّث سطحيًّا فإنَّ النباتات الخضراء العريضة الأوراق تكون أشدَّ خطراً على الإنسان، كالخس والسبانخ، والفاكهة التي لاتنزع قشرتها عند أكلها كالعنب والمشمش.

انتقال الإشعاع من النبات إلى الإنسان:

ينتقل التلوُّث الإشعاعيُّ من المزروعات إلى الإنسان مباشرة عن طريق الغذاء، أو عبر وسيط مثل الحيوانات التي تتغذى على النباتات، فتترسب المواد الإشعاعية في أجسامها، ثم تنتقل للإنسان عن طريق تناول لحومها أو ألبانها. ويعد تلوث المواد الغذائية بالإشعاع عن طريق المياه والتربة، أقل خطورة من تلوث النباتات مباشرة بالغبار الذري.

كمية المياه وأثر التلوث:

قد تتلوث الحيوانات والأسماك بالإشعاع إذا كانت كمية المياه قليلة ومحدودة، في حين يقل خطر التلوث في البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات الكبيرة.

تلوث التربة وتلوث المحاصيل الزراعية:

في حال تلوث التربة بالغبار الذري فإنها تحمي على المدى القصير المحاصيل الدرنية كالبطاطس والفجل والجزر والبصل من التلوث الفوري. وإذا كان نصف العمر للمادة المشعة قصيراً، فإنها تختفي قبل

وصولها إلى شبكة الجذور أو المياه الجوفية. وتختلف درجة تلوث السلسلة الغذائية من خلال شبكة الجذور والمياه الجوفية حسب نوعية الغبار الذري. فمادة مثل السيزيوم تلتصق بالتربة كيميائياً، وإذا بقيت المواد المشعة في التربة فإن المحاصيل اللاحقة ستتلوث بدرجة كبيرة.

تناول الغذاء الملوث بالإشعاع:

وعندما يتناول الإنسان غذاءً ملوثاً بالإشعاع، فإن بعض الخلايا تكون أكثر تأثراً مثل خلايا الجلد والجهاز الهضمي والدم، ويعد الدم أكثر هذه الأجهزة حساسية للأشعة، وعند التعرض لجرعة 300 راد من الأشعة، فإنه يجري انخفاض سريع لمكونات الدم، وتبدأ الخلايا اللمفاوية في الاختفاء، وربما تختفي تماماً خلال يومين، كما ينخفض عدد الصفائح الدموية بصورة كبيرة، ومن الممكن أن يتعرض الإنسان للموت جراء حدوث نزيف شديد، وإذا زادت الجرعة التي تعرض إليها الجسم إلى ألف راد، فإن إمكانية إصابة الجهاز الهضمي بتلف الغلاف البروتيني المغلف له تتزايد بصورة كبيرة.

التلوث وخداع المستهلك:

وعند اكتشاف حالات تلوث للأغذية فإنه يجب إتلاف هذه الأغذية فوراً، وهو ما يؤدي بالطبع إلى خسائر اقتصادية كبيرة للمنتجين، ولكن البديل هو خداع المستهلك وتركه يأكل أغذية غير صالحة للاستهلاك وتصيبه بأمراض خطيرة.

محدودية العلاج المقدم:

العلاج الذي يمكن تقديمه للمصاب لا يتجاوز المضادات الحيوية، والأدوية المساعدة على تجنب المضاعفات. وبعد التعرض للإشعاع يكون من غير الممكن تقديم أي مساعدة لتجنب المضاعفات، فالتفاعل يبدأ بتأيين مكونات الخلية وتشكيل المركبات الكيماوية السامة والمضاعفات الحيوية في الخلايا والأنسجة، ولا يمكن التدخل مطلقا في هذه المراحل جميعا، والعلاج يكون فقط في تخفيف الآثار، وتحفيز المناعة، ومقاومة المضاعفات التي قد تسببها مكونات البيئة المحيطة كالبكتيريا.

هستيريا الخطر النووي:

إن موضوع الإشعاع من المواضيع المهمة

والتي يكثر الحديث عنها، حيث يشعر كثير من الناس بالخوف إلى حد كبير على صحتهم وصحة أبنائهم وأحفادهم،خاصة عند الحديث عن الآثار بعيدة المدى للإشعاع. فالحديث عن احتمالية وقوع حوادث في المفاعلات النووية القريبة أو البعيدة وعبور آثارها للحدود وانتقال المواد المشعة إلى التربة والمياه والحيوان والنبات والإنسان، والحديث عن النفايات النووية ودفنها في الدول الفقيرة واحتمالية تلويثها للمياه الجوفية، وانتشار الملوثات الإشعاعية الناتجة عن الاستخدام العادي للمفاعلات النووية، ناهيك عن الكثير من المصطلحات المفهومة وغير المفهومة؛ فالأسلحة النووية والقنابل الهيدروجينية والقنابل النيوترونية والقنابل النظيفة والأسلحة القذرة والأسلحة الإشعاعية، كل ذلك يجعل الواحد منا يتمنى لو استطاع الهجرة إلى الفضاء الخارجي ليسلم بحياته من هذا الخطر الداهم الذي يجعله يعيش في دوامة من الخوف والرعب والقلق وربما القهر

الجلد هو أكثر الأعضاء تعرضًا للإشعاع:

الجلد هو أكثر الأعضاء تعرضا للإشعاع، ففي الحوادث النووية أو أثناء العلاج الإشعاعي الخارجي

فإنَّ الجلد يستلم جرعة إشعاعية كبيرة، ويظهر أثرها على شكل احمرار كما الاحمرار الذي يظهر نتيجة التعرض لأشعة الشمس لفترة طويلة، كما أنه قد يتطور إلى درجات الحرق الأربعة المعروفة طبيا.

*ففي **الدرجة الأولى**، عند جرعة إشعاعية 3000 ملي سيفرت تقريبا، يمكن أن يظهر احمرار خفيف ويتساقط الشعر عن المنطقة المشعَّعة، ولكن هذا الأثر سرعان ما ينتهي ويعود الشعر إلى الظهور بعد شهرين تقريبا.

*في **الدرجة الثانية**، وعند جرعة إشعاعية أكبر، يلتهب الجلد ويصبح لونه أحمرا، وبعد فترة يشفى الجلد ولكن يبقى لون الجلد أسود داكن لفترة غير قصيرة.

*أمَّا **في حرق الدرجة الثالثة**، فيكون الالتهاب أشد أثرا ويشبه الحرق الناتج من انسكاب ماء مغلي على الجلد مسببا بعض التقرحات التي تشفى خلال أسابيع ويبقى أثرها كأثر الحرق العادي.

*أمَّا **حرق الدرجة الرابعة**، فتكون منطقة الالتهاب سوداء قاتمة.

التأثير على الدم:

إنَّ تعرض الجسم لجرعة إشعاعية كبيرة يؤدي إلى نقص مؤقت في عدد كريات الدم، حيث يكون النقص أشد في عدد الخلايا البيضاء عنه في الخلايا الحمراء، وانخفاض عدد الكريات البيضاء يجعل الجسم ضعيف المقاومة للأمراض، بينما نقص الكريات الحمراء يسبب نقصا في إمدادات الغذاء والأوكسجين لأنسجة الجسم المختلفة مما يسبب إصابة الشخص المتعرض بفقر الدم؛ مما يؤدي إلى أضعاف الجسم بشكل عام. ويمكن أن تظهر هذه الأعراض عند جرعة أكبر من 2000 ملي سيفرت. أن تعرض الجسم لجرعة إشعاعية كبيرة، حوالي 10.000 ملي سيفرت، فإن الشخص المتعرض يشعر فجأة بدوار وتقيؤ وإعياء شديد، ويمكن أن تؤدي الجرعة إلى تلف الجدار المبطن للأمعاء، مما يسبب الإسهال؛ ويؤدي ذلك إلى فقدان الجسم للسوائل ويتدهور وزن المريض، مما قد يؤدي إلى وفاته. كما أن جرعة مقدارها 20.000 ملي سيفرت قد تؤدي إلى الإضرار بالجهاز العصبي المركزي، حيث يمكن أن تؤدي إلى الإغماء الذي قد يؤدي إلى الوفاة بسبب ما يعرف بموت الجهاز العصبي المركزي.

الكريات البيضاء:

العدد الطبيعيُّ للكريات البيضاء في جسم الإنسان يتراوح بين 6000 و8000؛ وفي حال الانفجار النووي ينخفض العدد إلى 2000، بل وأحيانا حتى إلى 200 و300؛ وبهذا يفقد الجسم المقاومة، ويبدو أنَّ كلَّ أجهزة جسمه تتعرض للهجوم من قبل البكتريا، التي تفكك عادة المادة المتحللة إلى تراب وسماد. وهو عادةً ما يقع للمتوفى في قبره بعد موته.

السـرطان والأضرار النووية:

لقد أصبح جلياً منذ أوائل القرن التاسع عشر أنَّ مجاميع من الناس مثل العاملين بأقسام الأشعة بالمستشفيات ومرضاهم الذين تعرضوا لمستويات عالية من الإشعاع قد ظهرت فيهم أنواع من السرطان بنسب أعلى مما هو الحال عند المجاميع التي لم تتعرض للإشعاع. والسرطان هو تكاثر مفرط للخلايا في أحد أعضاء الجسم ويظن أنه يحدث نتيجة تلف جهاز التحكم في خلية فردية، فيؤدي بها إلى الانقسام بسرعة أكثر من انقسام الخلية الصحيحة ثم ينتقل هذا الخلل إلى الخلية الوليدة؛ وبهذا يزداد تعداد الخلايا الشاذة إلى حد يؤذي الخلايا الصحيحة في نسيج العضو. ويعتبر السرطان من التأثيرات المتأخرة للإشعاع إضافة إلى إعتام عدسة العين.

الآثار على الجهاز التناسلي:

يتسبب تناول الأغذية الملوثة إشعاعيًا في أضرار كبيرة للجهاز التناسلي عند الرجل على وجه الخصوص، وفي حال تعرض الخصيتين لجرعة من الأشعة تبلـغ 600 راد، فإنَّ هذا يسبب عقماً دائماً عند غالبية الذكور، أمَّا إذا كانت فترة التعرُّض للإشعاع قليلة فإنَّ ذلك قد يؤدي إلى عقم مؤقَّت، وتتباين فترة العقم وفقًا لجرعة الأشعة التي يمتصها الجسم. أما الجهاز التناسلي للمرأة فهو أكثر مقاومة للإشعاع، إذ يلزم لحدوث العقم عند المرأة تعرضها لجرعة تبلـغ نحو 3000 راد من الأشعة، وتتناقص هذه الجرعة مـع تقدم العمر عند المرأة لتصل إلى 625 راد، ويعود سبب مقاومة الجهاز التناسلي للمرأة للإشعاع نسبيًا إلى عدم وجود انقسام مشابه للخلايا كما هو عند الرجل.

الحـمى ووقت ظهورها:

يؤدي التعرض إلى جرعة عالية من الإشعاع إلى ظهور الحمَّى في وقت مبكر، أو الجرع القليلة، فتظهر أعراض الحمى بعد بضـع أيام من التعرض.

تساقط الشعر:

يتساقط الشعر خلال 17-21 يوم من التعرض لجرعة تزيد عن 2 سفرت؛ ويعود الشعر إلى النمو بعد بضعة أشهر؛ لكنه قد يختلف لونه عن الشعر الأصلي. أما عند التعرض لجرعة تزيد عن 7 سفرت يؤدي إلى تساقط الشعر نهائياً دون أن يعود للنمو.

إعتام عدسة العين:

من بين الآثار المتأخرة الناتجة عن الإشعاعات عتمة عدسة العين؛ وهو المرض المعروف باسم «الكتراكت» وتوجد قيمة معينة للجرعة الكافية التي يحدث بعدها هذا المرض هي حوالي 15 مل سيفرت؛ لذا يجب أن لا تزيد الجرعة التي تتعرض لها العين طول حياتها عن هذه القيم حتى لا تتعرض لهذا المرض.

الدماغ والنخاع الشوكي:

في حالات التعرض الخطير للآثار النووية، غالبا ما يتحول الدماغ والنخاع الشوكي بالتبع، وكلُّ ما

له علاقة بالمخ وبأجهزة التحكم في الإنسان، جميعُها تتحول إلى سائل، إذ تذوب بسرعة فائقة. ولا حديث إذن عن «عقل» أو «فكر» أو «إرادة» أو «إحساس»... وهو أسوء بكثير من الموت الدماغي، أو حتى من الموت الكلِّي.

انخفاض متوسط العمر:

أكدت التجارب أنَّ متوسط العمر ينخفض قليلاً بالتعرض للإشعاعات، ولقد أظهرت الإحصائيات التي تم إجراؤها على مجموعات بشرية تعرضت لجرعات عالية أنَّ جرعة مكافئة مقدارها سيفرت واحد تؤدي إلى قصر عمر الإنسان بما لا يزيد عن سنة واحدة.

Kitabook

الموت المحقق:

عادة ما يصاب الذي يتعرض إلى الإشعاع بجرعات كبيرة إلى التعفَّن حتى وهو على قيد الحياة، والأمراض تهاجمه من الداخل أكثر مما يأتيه من الخارج. ويتعرض نقي العظام إلى إشعاعات كثيفة يتحوَّل إلى سائل أصفر يشبه عصارة الكبد. ومع فناء أنظمة المناعة تبدأ البكتريا التي تتغذى على اللحم البشري بعد وفاته في الظهور.

وتنتشر الحمى النزفية داخل الجسم، ولا يتخثر الدم حينها. تختفي الصفيحات الدموية، وعوامل التخثر الأخرى كلية. وهو الموت المحقق.

أساسيات الحماية من الإشعاع :

هناك ثلاث مفاهيم أساسية لحماية الإنسان من الإشعاعات المؤينة الذي يتعرض لها:

أولاً- الزمن: مقدار التعرض الإشعاعي radiation exposure للشخص يزداد بزيادة زمن التعرض exposure time للمصدر الإشعاعي، الذي عادةً ما يكون خارج جسم الإنسان مثل أشعة إكس وأشعة جاما x and gamma rays .. أما عندما تدخل المادة المشعة الجسم فإنه يتعين الانتظار حتى تتحلل أو يتخلص الجسم منها . وفى هذه الحالة فإن زمن التعرض الإشعاعي يعتمد على عمر النصف البيولوجي Bio logical half-life ويعرف بأنه الزمن الذي يأخذه الجسم للتخلص من نصف عدد النوويات المشعة التى كانت موجودة في الأصل

جواب على الرسالة، بقلم القارئ

مع المأمول أن يُشفع بفعل حضاري للوطن

Kitabook

Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

الرواية الفكرية

- تنويه لا بدَّ منه -

«**الرواية الفكرية**» ليست رواية بالمفهوم الأدبي، فهي لا تدعي التقيد بالمعايير الكلاسيكية للرواية، ولا للقصة القصيرة، ولا للسيناريو... بل تتنكر لها، وتثور عليها، وترى فيها - إلَّا قليلًا - برودة ورتابة، وعبثا لا يخفى...

«**الرواية الفكرية**» حفر معرفيٌّ، ومعالجة فكريةٌ، وقراءة حضاريةٌ... على شكل روائي متحرِّر من القيود المدرسية؛ يهتمُّ بشؤون الإنسان والأمة والبشرية، ويغوص في التاريخ والواقع والمصير؛ بهدف «تغيير ما بالنفس»... ضمن «نموذج الرشد»، الذي يعنى بتجسير الهوة بين الفكر والفعل، بين العلم والعمل.

«**الرواية الفكرية**» تستند إلى المنهج القرآني في القصص، منهجِ العبرة والهدى.

«**الرواية الفكرية**» أسلوبٌ جديد؛ مع الوعي التامِّ أنه لو ولد على يد «الآخر» لزمَّر له الكثير وطبَّل، ولكن حين يولد على يد «النحن» قد يجد العديدَ ممن يتكلف الرأي ويركب الرفض؛ ولكنه يقينًا سيجد الكثير ممن ينصف، ويواصل الطريق، ويبدع... مبتغيا في ذلك «ذاتية اتباع الأسباب».

من «**بوبال**» إلى «**ميمونة**»، ثم إلى «**اليربوع الأزرق**»... بدايةُ مسيرة، وخطوة أولى في الطريق الطويل...

وعلى الله قصد السبيل...

Kitabook

المحتويات

الفصل الأول: ويولد الرضيع المتهم 5

الفصل الثاني: في مكابدة الفهم 13

الفصل الثالث: هيهات للضمير أن يصمُت 29

الفصل الرابع: النقطة صِفر... عينُ الجحيم 41

الفصل الخامس: ثقب في ضمائرنا 53

الفصل السادس: ما نْسَامحُوشْ فْرَنسا 63

الفصل السابع: من العلم إلى العمل: السفر الأبديُّ 79

الفصل المائة: من صناعة الموت إلى صيانة الحياة 95

ملاحق

نص الرسالة 103

قصيدة وليد القنبلة الذرية، مفدي زكرياء 106

خطبة الهندي الأحمر الأخيرة، تبحث عن عربي يقرأها هذه الأيام 108

الآثار الناجمة عن الإشعاع النووي على الإنسان والطبيعة 115

المحتويات 143

Kitabook

رواية

د. محمد باباعمي

الربوع الأزرق

رقان نقطة الانعطاف من صناعة الموت إلى صيانة الحياة

«فجأة، بدأت أشعَّة تعمي عين عليٍّ، وهو ينظر، ويا لهول ما ينظر، إلى جسم الرجل وهو يذوب... بدأت عظامه تغلي غلياناً يرسل البخار إلى أعلى الجسم، وقد تقطَّر اللحم كلُّه وسار سائلا في أقلَّ من رمشة العين، والعينان قبل ذلك قد انفجرتا، واللسان تحوَّل إلى سائل لزج... وكلُّ أعضاء الجسم... وقد التصقت ملابس الرجل بالمعادن التي تحلَّلت بفعل الشعاع...».

باختصار: «تبخَّر الرجُل...».

كالمصعوق استفاق عليٌّ من كابوسه، وهو يصرخ، ويردِّد على إثر ذلك الشبح: «أنتم جبناء... لا غِيرة... لا كرامة... حرام... حرام... حرام...».

******

مهداةٌ لأحفاد هؤلاء الذين – يا للأسف – تبخَّروا جسدا، وتبخَّروا من ذاكرة الوطن، كأنهم لم يوجَدوا يومًا، أو كأنهم لم يغادروا العدَم أبدا... غير أنهم كانوا نقطة انعطاف في تاريخ حضارة، هي بلا ريب حضارة «صيانة الحياة»، و«نشر الخير».

مهداةٌ إلى تلاميذ مدرسة 13 فيفري 1960، رقان، الجزائر.

ISBN 978-9947-817-02-5

كتابك
Kitabook

حي قعلول، برج البحري - الجزائر
Tél: 023.957.273
E-mail: info@kitabook.net
www.facebook.com/kitabook